عبد الله بن مرزوق القرشي



قراءةٌ تفكُّريّة في آيات الكتاب العزيز

وجوه
WOJOOOH

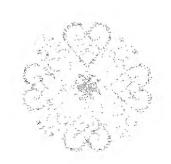
لعلهم يتفكرون
عبدالله القرشي

ح/ عبدالله مرزوق فاحس القرشي، ١٤٣٥هـ.
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القرشي، عبدالله مرزوق فاحس
لعلهم يتفكرون./ عبدالله مرزوق فاحس القرشي - الرياض، ١٤٣٥هـ
١٤٢ ص؛ .. سم
ردمك: ٥-٩-٤٧٥٩-٠١-٦٠٣-٩٧٨
١-القرآن والعلم ٢- القرآن-الاعجاز العلمي ٣-التفكير أ. العنوان
ديوي ٢٢٩،٤٥ ١٤٣٥/٣٣٧٤
رقم الإيداع: ١٤٣٥/٣٣٧٤
ردمك: ٥-٩-٤٧٥٩-٠١-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الاولى
1435 هـ - 2014م



www.wojoooh.com
المملكة العربية السعودية - الرياض
الهاتف:4562410 الفاكس:4561675
للتواصل والنشر:
info@wojoooh.com
www.facebook.com /wojoooh
@wojoooh1



المقدمة

«وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ (وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)»

[النحل:٤٤]

اللهم لبَّيكَ وسعديك !

سأحاول مَرَّةً بعد أخرى أن أتقرب إليك ياربّ، بعبادة (التفكُّرِ) في آياتك، وعظيم بيانك.

اللهم إن أخطأتُ فاغفر لي خطئي، واجبُر لي زللي، وإن أصبتُ فتقبله مني وبارك لي فيه !

اللهم إني أشكو إليك ذنوبي، وتفريطي في أمري، اللهم اجعل لي من التفكُّر في كلامك عفوًا وغفرانًا، وامحُ به خطيئتي، وارفع به درجتي، واكتب لي حبك وقربك، واقبلني في عبادك الصالحين !

اللهم إنا نستغفرك ونتوب إليك؛ وقد تركْنا الرِّواء في كلامك، ونحن نَهِيم عنه ظمأً وعَطَشًا !

هذا الكتاب هو الجزء الأول من مشروع «لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»و ستلحقه أجزاءٌ أخرى -بإذن الله-. وهو قراءةٌ تفكُّرية في آيات القرآن الكريم، متعلقة بالتفكير والمنهج، والدعوة والإصلاح، وموضوعات أخرى. وكم في هذا القرآن من المعاني والآفاق والأسرار لا يصل إليها المؤمن بغير التفكُّر، ومهما تكاثرت وتتابعت كتب التفسير، فإنه لن يُحيط المفسر المحدود في علمه وعقله بالنص الرباني الخالد.

داخل هذا النص معانٍ عظيمة، وعلينا أن نعمل أبدًا على استنطاقها والاستهداء بهديها. هذه الحروف المقدسة ظلت شامخةً فوق الزمان والمكان والأجيال، وظلت حركةُ العلوم والاكتشافات الحديثة تدفع بالجديد؛ فترتعد كل الكتب القديمة أمام كشوفاتها وحقائقها.. إلا القرآن، فإنهم لن يجدوا حرفًا واحدًا يخالف اكتشافا جديدا.

إنّ في واقعنا وتفكيرنا وأفكارنا ومنهجنا عللًا وأدواء، وفي القرآن

شفاؤها ودواؤها، لو كانوا يفقهون.

أين العقول المؤمنة التي تتبتّل لربها في محراب التفكُّر ؟! حين يدخل العقل متواضعا لعالَم القرآن، كأنما يلبس إحرامه الأبيض، ويجول بتدبره وتفكيره في هذا العالَم الطاهِر، يستشفي لأدوائه، ويستهدي لحيرته وضلاله . «يا عبادي، كلكم ضالٌ إلا من هديتُه؛ فاستهدوني أهدكم».

القرآن لا يكبر عليه أحد، والمؤمن يجلس في رحابه كما يجلس التلاميذ الصغار في الكتاتيب، وهدايات القرآن أقرب لمن سجد عقلُه وقلبُه بين يدي ربه.

لقد التزمتُ في هذا الكتاب بمراجعة التفسير في كل آية أريد أن أتفكّر فيها، ثم عرضت ما كتبته على جماعة من أهل العلم والفضل، زيادة في الطمأنينة بألا أكون قلت في كتاب الله بغير علم، وغاية ما أريده أن يكون خطأ الكتاب مغموراً في صوابه، وأن أكون معذورًا في الخطأ لا مأزورا.

وهذا الكتاب بين يديك أخي القارئ، أنتظر قراءتك وتقييمك، ونقدك وتوجيهك؛ حبًّا في القرآن؛ وخدمةً لمعانيه الكريمة.

وهنا شكرٌ واجبٌ لصاحب الفضل والإحسان سبحانه، فله الشكر من قبلُ ومن بعد، على نعمه العظيمة، وآلائه الجسيمة.

والشكر بعد ذلك لجميع السادة الفضلاء، الذين أكرموني بوقتهم وعلمهم، وحبهم ونصحهم، وعونهم ومساعدتهم. لهم جميعا أصدق الشكر والثناء، ولهم في سجودي خالص الدعاء، ولست أجد ما يكافئ فضلهم غير الدعاء، والله هو الغني الكريم.

المؤلف

عبدالله بن مرزوق القرشي

إيميل: a0503704440@gmail.com
تويتر: @aabualmonther

الوقفة الاولى

في نظام التفكير

تصحيحُ (التفكير) أهم من تصحيح (الأفكار)

بين الأفكار والتفكير:

ذهبَتْ كثيرٌ من الجهود والأعمار في سِجال (الأفكار)، وهي على أهميتها وخطورتها أقل تأثيرًا وأهميةً من (التفكير) ذاته؛ فإن التفكير هو النظام الذي يتعامل مع هذه الأفكار، وهو المعيار الذي يحكم عليها بالقبول أو الرد، وهو المَعْنِيُّ بطريقة التعامل مع الفكرة الصحيحة وطريقة استثمارها. نحن بحاجة إذن إلى حديث عن (نظام التفكير) أكبر من حاجتنا للحديث عن الأفكار، (وإذا ارتفع البحر ارتفعت معه جميع السفن).

ماذا ستنفع المعلوماتُ الصحيحة إذا استقبلها نظامٌ في التفكير خاطئ؟! وماذا ستضر الخرافات إذا اصطدمت بنظامٍ دقيقٍ في التفكير، وآلية مِهَنية في التصديق والتكذيب؟!

لقد أنقذ (نظامُ التفكيرالصحيح) فتيةً صغارًا، كان كل ما يملكونه أمام تراكماتِ الخرافة، وسلطانِ العادة قانونًا فكريًا صحيحًا: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ ﴾ [الكهف: ١٥].

المطالبةُ بالدليل والبرهان كشفت لهؤلاء الفتيةِ الزيفَ المستبدَّ بعقول

قومهم، وأنقذتهم -بفضل الله- من عدد هائل من الخرافات والأفكار الخاطئة، والإسلام كما جاء بالحقائق والأفكار الصحيحة، فقد جاء كذلك بتصحيح التفكير والنظام العقلي.

صراع العقل والنقل:

لقد بالغ بعض الناس في تعظيم الدليل النقلي، والتهوين من شأن الدليل العقلي، حتى أصبح العقلُ تهمةً وريبة! وربما كان ذلك بسبب غلوٍّ آخر في تعظيم العقل، وممارساته الخاطئة على حساب النقل الصحيح، ويبقى الحقُّ متمايزًا عن الغلاة، والحق لا يتعارض، إنما يتعارض وَهْمٌ سمَّوْه عقلًا، أو كذبٌ سمَّوْه نقلًا.

وحين نعرض على أحدهم الدخول إلى الإسلام، فكيف يقبلُ الإسلام ويرفض بقية المذاهب والأديان؟ ما لم تكن هناك قواعد عقلية محايدة، تكشف أن الإسلام هو الدين الحق، وأن ما عداه هو الباطل!

إن عدم احترام هذه القواعد العقلية والفطرية يمنح الحق لكل أحد أن يدَّعي صحة دينه ومذهبه، ولن يبقى معيارٌ محايدٌ يكشف صحة الدعوى أو زيفها.

وفي القرآن خطاب عجيب لهذا الإنسان بعقله وفطرته وعاطفته، حتى إن الآية الواحدة منه قد تكشف للإنسان الهداية، وتُخرِجه من العَماية، وتصل إلى أعماق عقله وفطرته، ومن ذلك ما ذكره ابن كثيرٍ -رحمه الله- في تفسير قول الله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾[الطور :٣٥]. يقول رحمه الله: «هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية، فقال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ أي: أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا .

قال البخاري: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان قال: حدثوني عن الزهري، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[الطور: ٣٥-٣٧]، كاد قلبي أن يطير .

وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من طرق، عن الزهري.

وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشركا، وكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام بعد ذلك».

الحقّ لا يتعارض:

إن التفكير الصحيح لا يقبل بعض الحق ويرد بعضه، ولا يضرب بعض الحق ببعض، فكما أنه لا يجوز أن يضرب الوحي المنزل بعضه ببعض، فإنه لا يجوز أن يضرب الوحي المنزل بحقائق الكون وسننه ونواميسه، فالوحي من عند الله، والكون ونواميسه خلق الله، والحق لا يتعارض، مثال ذلك: ما نراه من تفوق الكفار في قوّتهم واقتصادهم ونظامهم ورفاهيتهم، فربما فهم بعض الناس أن كفرهم يمنعهم من ذلك، فإما كابر الواقع، أو شك في الوحي، ولم يعلم أنّ من سنن الله في خلقه العدلَ، فهو يؤتي في هذه الدنيا من أخذ بأسبابها، وسعى لها سعيها، والإيمان بالله وحده لا يكفي لأن يجعل أتباعه أكثر قوة، أو أغنى مالًا، أو أحسن نظامًا.

وإذا فهم الإنسان من الوحي ما يعارض سنن الكون ونواميسه الثابتة؛ فعليه أن يعود ليتأكد من فهمه للوحي، وفهمه لنواميس الكون، فلابد أن خطأً ما وقع في فهمه لأحدهما، وقد نص القرآن على أن الدنيا يؤتيها الله لمن طلبها بصدق: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾، [هود: ١٥]، ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠].

إذن فعقل المسلم ونظامه في التفكير يجب أن يستوعب حقائق الوحي، ونواميس الكون، وأن يستفيد منها علما وبصيرة، وألا يفرض التعارض بين أمرين مردُّهما لله وحده، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]

لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن:

حين يغيب (نظام التفكير) يصبح العقل مرتعًا للخرافة، ومَجْمعًا للتناقضات، ومن المؤسف أن التوحيد الذي جاء حربًا للخرافة، أصبح بعض أتباعه لا تتحرج عقولهم من قبول خرافات دينية وسياسية ومجتمعية؛ ذلك أنهم أخذوا (فكرة التوحيد) ولم يأخذوا (نظام التفكير الذي فرضه التوحيد)، ولذلك؛ أصبحت هذه العقول تقبل الأفكار والأخبار دون أن تُعرِّضَها لهذا القانون الصارم: ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤]، ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ [الكهف: ١٥]، ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾، [الزخرف :١٩]، ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾، [غافر: ٤٠].

للضلال بابان:

إن القرآن يُعلّم أتباعه أن التصديق مسئولية، والتكذيب -كذلك- مسئولية، وللضلال بابان: تكذيب الحق، وتصديق الباطل. قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾[العنكبوت: ٦٨]، وقال سبحانه: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾[الأعراف: ٣٧]، ومن اعتقد أن مع الله إلها آخر ونحو ذلك فقد افترى على الله كذبًا. يقول ابن جرير الطبري -رحمه الله-: «يعني: ممن اختلق على الله قيلَ باطل، واخترق من نفسه عليه كذبًا، فزعم أن له شريكًا من خلقه، وإلهًا يعبد من دونه -كما قاله المشركون من عبدة الأوثان- أو ادعى له ولدًا أو صاحبةً، كما قالته النصارى». فنظام التفكير الصحيح يتوثق فيما يصدق، ويتوثق فيما يكذب، ولا يصدق إلا بنظام، ولا يكذب بغير نظام.

العقل المتناقض:

أما التناقضات، فإنك تعجب من قبول الفكرة وما يناقضها، وكأن الأفكار في بعض العقول متباعدة وليست متلازمة، فيمكن أن يقبل الفكرة وما ينقضها في وقت واحد!

لقد رفض عقلُ المشرك فكرةَ البعث والمعاد في ذات الوقت الذي قَبِل فكرة خَلْقه أوَّل مرة، دون أن يشعر بالخيبة والتناقض، وكشف القرآنُ هذه المشكلة في بيان عجيب جمع بين قوة الإقناع واختصار العبارة: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٦٦-٦٧]، وفي موطن آخر: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾.[يس: ٧٨].

عقول أهل التوحيد لا ينبغي أن تغفل عن التناقضات، ويجب أن تحافظ على صحة نظامها وتفكيرها واطّرادها.

يستبدلون الهوى بنظام التفكير:

وهناك مشكلة كبيرة حين يصبح القبول والرفض للأفكار والأخبار يخضع لمنطقٍ آخر لا يحترم (نظام التفكير)، بل هو يقبل ويرفض بناء على حبه وهواه، أو بناء على موافقته لآبائه أو شيوخه أو مجتمعه، تلك مشكلة خطيرة تسمح لصاحبها أن يقبل الشرك الأكبر دون أن يشعر بضلاله وإشكاله.

عقل المشرك يستنكف من قبول الحقائق؛ لأنه لم يعهدها عند آبائه الأولين، ثم يسمح للخرافات أن تملأ عقله؛ لأنها من تراث قومه وآبائه!

وفي الحوار القرآني بين إمام الموحدين، إبراهيم -عليه السلام-، وقومه ما يكشف هذه المعضلة: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٧٢-٧٤].

كان إبراهيم يناقش الأفكار بنظام التفكير، وقومه يقبلون ويرفضون بناء على منطقٍ آخر، وهو منطق العاطفة والهوى، وموافقة آبائهم الأولين، وكل من التزم بنظام التفكير الصحيح فهو تابعٌ في ذلك لإبراهيم، وكل من جنح إلى الهوى والتقليد الأعمى فإنه يشابه في ذلك قومَ إبراهيم.

التفكير والهوى: غالبٌ ومغلوب:

إن نظام التفكير كما يتعامل مع الأفكار والأخبار العقدية الكبرى، يتعامل مع الأخبار والأفكار اليومية، ولذلك؛ تنحسر الشائعات والأكاذيب حيث يعمل هذا النظام، وتشيع الأغاليط حين يسترخي ويضعف النظام، وفي مملكة النبي الصالح سليمان لم يتخلف هذا النظام، حتى مع الحماس للتوحيد، والغيرة على دين الله من جريمة الشرك؛ فقد جاء الهدهد منتصرًا للتوحيد، متوجعًا مما رآه من الشرك: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٢-٢٦].

ورغم هذه الغيرة على دين الله، والانتصار لشأن التوحيد، بقي نظام التفكير والتعامل مع الأخبار قائمًا لا تُلغيه العاطفة، فقال له نبي الله سليمان: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧].

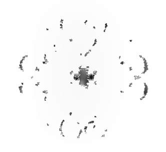
اختبارٌ صعبٌ لنظام التفكير حين يأتي الخبر كما نهوى؛ فأكثر الأخبار الكاذبة نقبلها حين نهواها، والأكثر قربًا من أئمة التوحيد هو من يحافظ على نظام تفكيره فيما يحب ويكره، ومن يبحث عن البينة في تصديقه وتكذيبه، ومن ينتصر نظامه في التفكير على عاطفته وهواه.

احترام الدليل:

نظام التفكير الصحيح يحترم البينة والدليل أيًّا كان مصدره، ويوسع مداركه ليأخذ العظة والعبرة حيثما كانت، فالحب ليس شرطًا في القبول والاستفادة، والكره ليس مانعًا من الاستماع والاختيار، وفي يوم عاشوراء قال رسول الله ﷺ كلمته النورانية، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدِمَ الْمَدِينَةَ، فَوَجَدَ الْيَهُودَ صِيَامًا يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي تَصُومُونَهُ؟» فَقَالُوا: هَذَا يَوْمٌ عَظِيمٌ، أَنْجَى اللَّهُ فِيهِ مُوسَى وَقَوْمَهُ، وَغَرَّقَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ؛ فَصَامَهُ مُوسَى شُكْرًا، فَنَحْنُ نَصُومُهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَنَحْنُ أَحَقُّ وَأَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ، فَصَامَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ».

وقد وجدت بعضهم يتحرّج من ذكر الشهادات والثناءات على

رسولنا الكريم، بلسان الكفار والمخالفين، ويرى أن في ديننا ودلائلنا غُنية وكفاية. لاشك أن دين الله لا يحتاج لشهادة أحد من الكفار، ولكن للكلمة الصادقة المحايدة تأثير خاص، ولا يمنع أن يستفيد منها المسلم دون غلو ومبالغة، وفي قول الله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾[الأحقاف: ١٠]، أصلٌ على الاستشهاد بكلامهم، فقد جعل لانتسابه هذا مزية خاصة في شهادته.



أولمْ يهدِ لهم:

طرائق الهداية كثيرة ومتنوعة، ومن أنار الله بصيرته، فتح له أبوابًا عديدة للهداية، ولا يُشترط أن تأتي الهداية بكلام عربي مبين، بل قد تأتي الهداية عن طريق العجماوات والجمادات، المهم أن يكون نظام التفكير دقيقا لا يقبل باطلًا، ويَقظًا منفتحًا على ألوان الهدايات.

وفي قصة ابني آدم، بعدما قتل قابيل أخاه هابيل، ولم يكن يعرف سنة الدفن: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِ﴾[المائدة: ٣١]، وتأمل هذا التصريح بأن الله هو الذي بعثه، والتصريح بأن الهدف من ذلك تعليمه وهدايته كيف يواري سوأة أخيه!قال ابن

جرير الطبري -رحمه الله-: «فأحب الله تعريفَه السنة في موتى خلقه، فقيَّض له الغُرابَين اللذين وصف صفتهما في كتابه».

لقد كان هذا الغراب وصنيعه طريقًا للهداية والاستفادة، وعقل المسلم وتفكيره يجب ألا يعمى عن هذه الدلائل، وألا يُعرِض عن أسباب الهداية في وحيه أو خلقه.

وفي الجمادات أسباب للهداية لقومٍ يتفكرون، فمساكن الذين ظلموا وهي خاوية آيات بينات، والعقل البصير لا يمرُّ على هذه الديار غافلًا مُعرضًا، بل مستيقظا مستبصرًا يرى آياتها، ويسمع مواعظها: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦]، فجعل المساكن من أسباب الهداية، واعتبرها من الآيات لقوم يسمعون، وفي موطن آخر يقول الله: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨]، فأصحاب النهى والعقول البصيرة لا يمرون على هذه الجمادات دون هداية واستفادة.

* * *

إنصاف الرأي الآخر:

سماع الرأي الآخر ضرورة في التفكير الصحيح، ولا ينبغي أن يحارِب الرأي الآخر إلا الخائفون من سطوة الحق على مواقفهم الهشة.

الحق لا يتضرر من الرأي الآخر، بل يزيده إشراقًا وبيانا، أما الرأي الضعيف، فإنه يطلب الحياة والبقاء بمحاربة الآراء الأخرى، وحجبها عن الناس: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦].

هل يليق بعد ذلك أن يخاف أهلُ الحق من الرأي الآخر ؟! هذا لا يعني تتبع الشبهات في مساربها وجحورها، بل سماع الآراء الظاهرة الحاضرة حول قضية معينة، سماع الرأي الآخر إما أن يزيد الحق وضوحًا، أو يبين بعض الجوانب التي حصل فيها نقص أو خلل، وربما يتبين أن الحق بخلاف ما عهد الإنسان عليه نفسه وقومه.

إن كل حقٍّ تأتي معه دعاية تشوه الحق وأهله، وما لم يحترم الإنسان آلية الرأي الآخر وضرورة سماعه، فإنه سيَحرم نفسه كثيرًا من الحقائق والمعارف.

الباحث عن الحق لا يمكن أن يستوفي بحثه دون أن يسمع الرأي الآخر.

في بعض الأحيان لسنا أمام حق وباطل، بل أمام مواقف اجتهادية، ولو كان أصحابها من الإسلاميين، مقابل آراء اجتهادية، ولو كان أصحابها منسوبين للعلمانية ونحوها، هنا يكون الرأي الآخر أكثر ضرورة؛ فإن غياب الرأي الآخر يغيب معه التطوير والاستدراك، وغيابه يعطي آراء البشر واجتهاداتهم منزلة فوق منزلة البشر.

العلة لازم المعرفة:

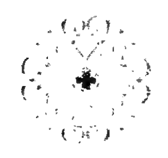
المعرفة المُعلَّلة لا يستغني عنها العقل الصحيح، وفي قصة موسى مع الخضر درسٌ وعِبرة؛ فإن موسى قد ذهب إليه بتزكيةٍ ربانية لعلمه ورحمته: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥]، وقد علم الخضر أن موسى لا يطيق صحبته؛ فإنه سيرى أفعالًا لا يعرف سببها وعلتها، وموسى من أحرار العالم وأذكيائهم، وعقلُه لا يطيق أن يقتنع دون حجة، أو يقبل بدون علَّة: ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ [الكهف: ٦٧].

سبحان الله ! يعلم الخضر أن عقل موسى لا يستطيع أن يصبر على ما لم يُحِط بخبره وسببه وعلته، لا تنس هنا أن الذي دلَّ موسى على الخضر هو الله، وأن موسى خير من يؤمن بالله، وقد حاولَ جَهده أن يقبل دون سؤال، وأن يصبر على ذلك، ولكن غلبته خِلقته وفطرتُه السويّة، وربه يعلم بذلك ويرضاه، قال موسى: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ [الكهف:٦٩]، وقد اجتهد موسى -عليه السلام-، وفي كل مرة يندم على سؤاله ويعزم على ألا يعود، حتى انتهى به الأمر إلى عذره في ترك صحبته: ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ [الكهف: ٧٦].

إن إمام الموحدين والمؤمنين لا يصبر عقلُه على معرفةٍ غير معلَّلة، مهما حاول وصابر، ومن أراد أن يصبر الناسُ على معرفة غير معلِّلة، فقد أرهقهم من أمرهم عسرًا، ولهم في موسى أسوة حسنة إن تركوه وفارقوه.

إن موافقة المتربي لأستاذه دون دليل وحجة هو من نقص الحرية والعقل، وليس من زيادة الأدب والفضل، ومثل ذلك لا يُحتفَل به.

ذاك الذي لا يقبل إلا بالحجة أكثر ثباتا مع الأيام، وأقوى مراسًا مع الأعداء.



سلطة التفكير الجمعي:

للعقل الجمعي تسلط على عقل الإنسان، ومن الصعب أن يفلت الفرد من قبضته وهو يعيش وسط قومه وجماعته، ولذلك؛ ارتبط السجن بكثير من المراجعات، فقلّما تجد مقدَّما في قومه يدخل إلى السجن، ويصبح في خلوة مع عقله الخاص بعيدًا عن تسلط العقل الجمعي، إلا وهو أمام مراجعات وأفكار جديدة، كان محجوبا عنها بسلطة التفكير الجمعي، فأصبح يرى وحده ما لم يكن يراه داخل الجمهور والجماعة.

لابد للإنسان من الخلوة بنفسه مختارًا غير مجبور، خلوة في مسجده، أو سفره، أو نحو ذلك؛ يعيد النظر في خياراته وقراراته المهمة، ويحاذر من تسلط العقل الجمعي وحجابه. يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾[سبأ: ٤٦].

التفكر مطلوب، وآفته حين يُحجَب بالعادة والجماعة، والخلوة بالنفس أو بمن هو في مقام النفس، تمنح العقل القدرة على التفكر والبصيرة، وتسمح للرجل أن يستثمر طاقته في التفكر والتفكير، واختبارِ القناعات، وتحديد الخيارات، وتصحيح الطريق والمسار.

لقد كرر المشركون التهمة لرسول الله حتى أصبحت راسخة في العقل الجمعي، ولن يُعرِّض هذه التهمة للاختبار الحقيقي إلا التفكر، ولا يساعد التفكر مثل الخلوة بالنفس أو من هو في مقام النفس: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

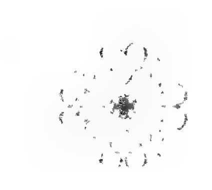
إن نظام التفكير عالَم آخر غير عالَم الأفكار، وهو بحاجة إلى اهتمام أعمق، ووقت أطول، وكثيرٌ من المواقف الخاطئة تعود لتفكير خاطئ، فنخطئ حين نركز على العَرَض ونترك المَرَض، ونشتغل بالنتيجة وننسى السبب، ونخطئ أيضا حين نتحدث في الأسباب، ثم نختزلها في الخيانة أو مثلِها، نريح عقولنا من عناء البحث والتحليل، ولكن لا نريح الحقيقة، ولا نكتشف الموقف.

وراء أفكارِنا ومواقفِنا الخاطئة نظامٌ في التفكير قادَنا لهذا الخطأ، وما لم نتدارك هذا النظام بالتصحيح والمراجعة، فسيظل الخطأ يعود إلينا من جديد.



الوقفة الثانية

في الدعوة إلى الله



وداعيا إلى الله:

يكاد بعضهم أن يستهين بوصف «الداعية»، ونسي أن سيدَ الخلق أجمعين هو إمام الدعاة، وصَفَه ربه بذلك: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٤٥- ٤٦].

فالدعوة إلى الله شرف عظيم، والداعية إلى الله يمضي في طريقٍ يرفع لواءَه سيدُ الخلق أجمعين ﷺ.

هذا التعظيم اللائق بالدعوة والداعية يوجب علينا اهتماماً أكبر في تأهيل الدعاة، وإكرامهم، والعناية بهم، وهذا التعظيم للدعوة يوجب على الدعاة- كذلك-أن يتذكروا دائماً أنهم دعاة إلى الله، فيجب أن يكون ذلك كما يحب الله، فالدعوة ليست لما يحب الداعية ويهوى، بل لما يحب رب العالمين.

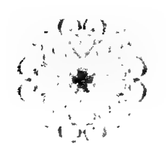
حين أدعو الناس لبعض أحكام الشريعة، وأُغفل في دعوتي ما هو أعظم وأجل عند الله منها، فهل هذه دعوة لما يحب الله، أو لما يحب الداعية ؟!

إن نظرةً سريعةً لطبيعة الموضوعات المكررة عند الدعاة اليوم تُبيِّن أنّ الأمر بحاجة إلى قدرٍ من المراجعة؛ حتى يصبح اهتمام الدعاة

وموضوعاتهم متوافقة مع أحكام الشريعة، وتفاوتِ منازلها في الأهمية.

كلما مررت على اللوحة الدعوية المعلقة على أبواب المساجد، أفرح بهذا الجهد المبارك، وألاحظ كيف تضخمت بعض الأحكام الشرعية المهمة على حساب ما هو أكبر أهميةً منها.

ومِن تعظيم الله، وتعظيم الدعوة إلى الله: أن نجعل أولويات الدعوة كما هي في الوحي الشرعي، وأن نراجع هذا الأمر مرة بعد أخرى.



القلب لايمتلئ بشيء إلا فاض به على من حوله:

الدعوة للشيء فرعٌ عن حبه والتعلق به.. هكذا هو الإنسان، لا يحب شيئاً، ويتعلق به، ويتصف به، إلا ودعا إليه، ولذلك تجد لكل مذهبٍ وملّة، دعاةً يدعون ويُرغّبون، حتى البُخل، تجد الآمرين به، والداعين إليه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ ﴾ [النساء: ٣٧]، فإذا خَفَت همُّ الدعوة عندك، فاعلم أن ذلك لضعفٍ أصاب قلبك؛ فإن القلب لا يمتلئ بشيء إلا فاض على من حوله؛ دعوةً إليه، وترغيباً فيه.

صرفهم إليه:

الدعوة إلى الله اصطفاءٌ واختيار، والخلق كثير، والدعاةُ إلى الله قليل، وجديرٌ بالذاكر لربِّه، والمَعادِ إليه، أن يجعل في دعواته طلب التوفيق والهداية والاصطفاء لهذا الشرف العظيم.

وإذا صرفك الله للدعوة إليه، فزت وربحت، وقد صرف الله بعض الجن لرسوله محمد ﷺ، صرفهم إليه؛ حتى يستمعوا القرآن، ويدعوا قومهم إليه، وما أعظم نعمتهم، وأجلّ منَّتهم بهذا الذي صُرفوا إليه:

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ [الأحقاف:٢٩].

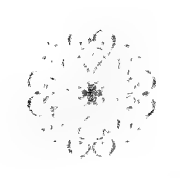
قلبه خلوٌّ من اليأس:

الداعية إلى الله لا ييأس من هداية أحد، أيّاً كان بُعده وفُجوره، عليه الدعوة، وعلى الله الهداية.

انتظر موسى -عليه السلام- يومَ الزينة، حيث التحدي والحشد الهائل؛ حتى يلتقي موسى مع كبار السحرة وأساطينهم. هو يدعو إلى الله، وهم يدعون إلى فرعون، هو يدافع عن الحق والحقيقة، وهم ينافحون عن الباطل والخرافة، ومخبوءٌ في القدر أن أول المؤمنين بموسى:هم ألدّ أعدائه، الطبقة الأسوأ في المجتمع، السحرةُ الكفرة: ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٥١].

الداعية إلى الله لا يستثني أحدا من دعوته، ولو كان خصمه ومعاديه، ولا ييأس من أحد، ولو كان الأسوأ والأبعد.

إن إيمان السحرة، وموقفهم المدهش في صبرهم وتضحيتهم يعطينا درساً كافياً في عدم اليأس من هداية أحد .



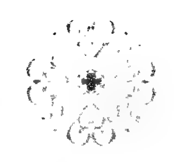
في أسوأ البيوت مسارب للنور:

في تجارب الدعوة المعاصرة تنتشر الدعوة في أماكن دون أخرى، وبينما تستجيب بعض الشرائح المجتمعية للدعوة إلى الله، تبقى بعض البيئات بعيدة بعض الشيء.

مع الزمن يتسرب شعور بأن تلك البيئات بعيدة عن الدعوة والتدين، وربما يزهد فيها أهل الدعوة.

حقائق التاريخ تثبت أن أسوأ البيوت يوجد فيها مسارب للنور، وأنه لا يجوز أن نعرض أو نيأس من بيتٍ واحد، فضلاً عن بيئة أو شريحة، مهما كان انتماؤها، ومهما كانت تجاربها السابقة مع الدعوة. لقد دخل النورُ بيتَ الملك الزعيم المحارب للرسالة والهداية، في الوقت الذي كان يحشد أجناده؛ ليحجب النور عن مملكته ! فآمنت زوجه، وأصبحت مثلاً للذين آمنوا: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم: ١١]، وآمن رجل يكتم إيمانه، وكان مشغولاً بالدعوة والإصلاح من داخل القصر، بما يناسب حاله ومكانه.

إن بعض الانطباعات التي نلقيها على بيوت أو بيئات معينة هي من عمل الشيطان، وبعد بيت فرعون، لا ينبغي أن ييأس الداعية من أي بيتٍ آخر.



ياليت قومي يعلمون:(رحمةٌ في قلبه):

الدعوة إلى الله حبٌّ وعطاء، قبل الدعوة هناك تجربة إيمانية، يذوق الداعية حلاوتها وهدايتها، ثم يحب لغيره أن يشاركه هذه الهداية، فيظل يدعوهم؛ رحمةً بهم، وحباً في هدايتهم.

لقد كان الداعية إلى الله في سورة (يس) مثالاً عجيباً في هذا الحب، ظل يدعو قومه إلى الله، واتّباع المرسلين، منذ أن جاء من أقصى المدينة يسعى، وحتى مات مقتولاً مظلوماً، وظل يحب لقومه الهداية، منذ أن كان حياً بين ظهرانيهم، وحتى قيل له ادخل الجنة: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٢٦].

ما أعجب هذا القلب الذي لا يجد الحقدُ إليه سبيلاً!

آذوه، وحاربوه، وقتلوه ظلماً وعدواناً، وظل قلبه مشغولاً عن الأحقاد بتمني الهداية لهم.

أخطر شيء على الداعية أن يسمح للأحقاد أن تستوطن قلبه. الدعوة حب، والحب لا يجاور الأحقاد ولا يساكنها.

ومن عجبٍ أن يستدل الداعية على قسوته بدعاء نوحٍ على قومه، ونسي

ما كان قبل هذا الدعاء من قرون متطاولة، يدعوهم ليلاً ونهاراً، وسرا وجهاراً. من تأسى بنوح -عليه السلام- في طول دعوته (لهم)من قبل، يصح له أن يقتدي به في دعوته (عليهم) من بعد. نبي الله نوح لم يبدأ بالدعاء على قومه، بل بالدعاء لهم، ولم يدع عليهم إلا بعد حياة مديدة من الدعوة والرحمة، وظلت بقيةٌ من هذه الرحمة حتى جاء الطوفان، وابنه كافر معرض، وهو يقول له: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ [هود: ٤٢]، وبعد هلاكه وغرقه، ظلت رحمته في قلبه، ودعا ربه حتى نُهي، واستجاب -صلى الله عليه وعلى نبينا محمد-.

مسجد الحيّ:

هو نورُ الحيِّ، ومصدر بهجته ورحمته، هو البيت الذي يجتمع فيه أهل الحي خمس مراتٍ في اليوم والليلة، ليس لأحدهم هذا البيت، إنما هو بيت الله الرحمن الرحيم! هنا يجب أن يكون الحب والتواصل والرحمة، ويجب أن يكون المسجد للجميع، حتى لذلك الصبي مع أمه، وحين يصرخ الصبي ويبكي، ينبغي أن يحرك هذا الصراخ رحمةَ الإمام في قلبه؛ فيخفف في صلاته من أجل الصبي وأمه، ولا ينبغي أن يحرك هذا الصراخُ قسوةَ

الإمام في قلبه؛ ليوبخها ويقرعها بعد الصلاة، وإذا شاء هذا الصبي أن يرتحل الإمام، فينبغي أن يتريث في الصلاة؛ من أجل هذا الصبي، دون تعنيف وتوبيخ .

المسجد لنا جميعاً: لرجالنا، ونسائنا، وأطفالنا، ومن هنا تبدأ حكاية الحب والتعلق بهذا المكان: «وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ». والإمام الموفق من عمر بيت الله بما يحبه الله من تواصلٍ ومرحمة، وحب وشفقة.

تعظيم المساجد في عهد رسول الله ﷺ لم يمنع من صراخ الأطفال، ولا لعبهم، ولم يمنع من نوم الكبار، ولا لعب الحبشة، ولا إلقاء الشعر. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن عمر رضي الله عنه مرّ بـحسان ينشد في المسجد، فلحظ إليه، فقال: قد كنت أُنشِدُ فيه، وفيه من هو خير منك.(متفق عليه). وكان عمر وقافاً عند كتاب الله.

المسجد في كل حيٍّ فرصة عظيمة لإقامة الدين، حين نتعامل معه كما تعامل رسول الله، وليس كما وجدنا عليه آباءنا الأولين. إمام المسجد: هو داعية إلى الله في ذلك المسجد، وينبغي أن يغرف لسانه من رحمة قلبه وحبه، وأن يصبر على جماعة المسجد، فخير الجماعات في خير المساجد بعد المسجد الحرام، تركوا خير الأئمة يخطب على منبره، وذهبوا للّهو والتجارة، ثم انظر لهذا الرفق والرقي في خطابهم: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ [الجمعة:١١].

بلسان قومه:

قربُ الداعية من قومه أنفع لدعوته؛ فمعرفةُ طبائعهم وتاريخهم ولسانهم وأعرافهم وعاداتهم، ومخالطتهم في غير ما منكر= أجدرُ في التأثير والإقناع: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقد يتسلل في المفاهيم الدعوية الرغبةُ في تمايز الداعية عن قومه، والتمايزُ هذا قد يجعله أكثر هيبةً واحتراماً، لكنه يُضعف قربه من قلوبهم، والتأثير عليهم، مع بُعده عن سمت الأنبياء.

إن مخالطة الناس في شئونهم وحياتهم حسنةٌ لا ينبغي أن يتنزه الداعية عنها: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وفكرة التمايز ذهب بها الكفار إلى الغاية، وافترضوا أن يكون الرسول من الملائكة: ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [ق: ٢]، فهذا رأي الكافرين، أما اختيار الله فأمر آخر، اختار سبحانه أن يكون الأنبياء (منهم).

وكثيراً ما ينص القرآن على «الأخوة»: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ [هود: ٥٠]، ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء: ١٠٦]، ونحو ذلك.

إن الدعوة إلى الله تأثير، وفي القلوب مفاتيح التأثير، والقرب منهم، ومشاركتهم في أفراحهم وأحزانهم، وتلمُّس حاجاتهم، وإجابة دعوتهم، أدعى لحبهم وقربهم واستجابتهم.

يَبلُغُ الناس بكلّ سعْيه:

وصول الداعية إلى جمهور الناس وعامتهم هدفٌ واضح، يصل إليه بكل طريق ممكن، فهو يبحث عن الناس ولا ينتظرهم أن يأتوا إليه، فحين قامت المناظرة بين فرعون ونبي الله موسى -عليه السلام-، وطلبه موعداً للتحدي، استثمر ذلك موسى عليه السلام للوصول إلى عموم الناس، قال موسى: ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه: ٥٩]. إن هذا الموعد لم يأتِ اتفاقاً، بل هو لهدف واضح في ذهن الداعية المشغول دائماً بإيصال دعوته وهدايته للناس، ويستثمر كل فرصة في تحقيق ذلك.

لقد كان بالإمكان أن يجري التحدي في قصر فرعون بعيداً عن أعين

الناس، لكن موسى مشغولٌ بالناس، واتخذ من هذا التحدي سبيلاً للوصول إليهم، ومن رسوخ هذا الهدف في قلوب الدعاة إلى الله: ما فعله الغلام المؤمن، وكان ثمن الوصول إليهم قتله، فرحب بقتله في سبيل الله، إذا كان ذلك هو الطريق الوحيد لدعوة الناس وهدايتهم، فقد روى الإمامُ مسلم في قصة الغلام المؤمن: «فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهما من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهما من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله رب الغلام، ثم رماه، فوقع السهم في صُدْغِهِ، فوضع يده في صُدْغِهِ في موضع السهم فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، فأُتِيَ الملكُ فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر، قد والله نزل بك حَذَرُكَ؛ قد آمن الناس ..».

في بعض الأحيان يوسوس الشيطان للداعية بأن احترام ما يدعو إليه يوجب عليه ألا يذهب للناس في أماكنهم، وأن يقتصر دوره في بيوت الله، ومن كتب الله له خيراً سيأتي بإذن الله، هذا من وسواس الشيطان، والداعية إلى الله لا ينتظر الناس حتى يأتوا إليه، بل يذهب إليهم حيث ما كانوا، ويستثمر كل وسيلة إعلامية وتقنية في تبليغ دعوته، ويسابق أهل

الشر والضلال في الوصول إلى الناس.

ويتعلق بهذا المعنى طريقة الخطاب الدعوي، فهناك خطابٌ نخبوي، وهناك خطابٌ جماهيري، فأيهما أولى وأحسن للدعوة بناء على هذا الهدف؟

أولاً: لكل خطاب ميزاته وعيوبه؛ فالخطاب النخبوي: جمهوره أقل عدداً، وأكثر أهمية، وأقل تفاعلاً، وأكثر نقداً. والخطاب الجماهيري: جمهوره أكثر عدداً، وأقل وعياً، وأكثر تفاعلاً، وأقل نقداً.

ثانياً: الجماهير محلٌ للدعوة، والنخبة محلٌّ للدعوة كذلك، ويجب أن يصل صوت الدعوة لكلَا الشريحتين، وأن يصل (بلسانهم) الذي يفهمونه ويتأثرون به.

ثالثاً: أما الداعية المعين، فيذهب حيث يجد مواهبه وقدراته، وكلٌّ ميسّر لما خلق له، دون أن يزهد أو يزدري الخطاب الآخر، وقليل هم أولئك القادرون على خطاب الجماهير والنخبة في آنٍ واحد: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ [الجمعة: ٤].

وغنيٌّ عن الذكر أن جميع الخطابات الدعوية يجب أن تلتزم بمعايير الشريعة، وألا تترك شيئا منها مسايرة لخطاب خاص، أو رغبة في تأثيرٍ خاص، فالوصول إلى الناس يكتسب أهميته حين يكون وصولاً صحيحاً، ملتزماً بمعايير الشريعة في الصدق والعدل ونحو ذلك.

وما آمن معه إلا قليل:

بعضهم يحسب أن الحجةَ وحدها تكفي في كسب القناعة والهداية.. كلا؛ فالهداية اصطفاء ربانيّ، ولا يضير الداعية إذا أدَّى ما عليه ألا يجد استجابة، وله في بعض الأنبياء أسوة حسنة.

لقد جاء الأنبياء إلى أقوامهم بآياتٍ بينات وسلطان مبين، وكانوا سادة الأخلاق والذكاء والحكمة، ثم لم يؤمن كثيرٌ من أقوامهم حتى جاءهم العذاب الأليم. هل يملك أحد من الحجج والبينات أكثر من آيات الأنبياء؟! ومع ذلك لم يؤمن كثير منهم. ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ [الإسراء:٥٩].

المهم ألا يُقصِّر الداعية في وضوح حجته، وحسن أخلاقه، ورحمته، ودَأَبه على الدعوة والصبر عليها، ثم لا يلزم بعد ذلك أن يستجيب له أحد.



وإن يك كاذبا.. وإن يك صادقا:

من طرائق الدعوة في أحوالٍ خاصة: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨].

إن هذا الأسلوب -وما فيه من احتمال- قد يصلح- في بعض الأحوال- أكثر من الأسلوب الجازم والحاسم بصدق الرسالة واليقين بها، وربما يقال: هذا خاص بمؤمن آل فرعون، وما يقتضيه كتمان الإيمان، فالجواب: يكفي اعترافاً بهذا الأسلوب التوافق على أنه مناسب في مثل هذه الحالة، ثم إن هذا الأسلوب قد جاء في غير مؤمن آل فرعون: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٢٤-٢٥].

فهذا المنطق المحايد ليس شكاً في صدق الرسالة، بل هو أسلوب آخر في إقناع المدعو والتأثير عليه، وتهيئته للوصول إلى الإيمان واليقين. إنه أسلوبٌ عقليٌ يوصل إلى اليقين، وليس شكاً أو ريبة في مضمون الرسالة.

وجادلهم بالتي هي أحسن:

ومن طرائق الدعوة: إظهار المساحات المشتركة مع المدعو، فحين يدعو المسلم نصرانياً، ثم يكشف له مساحات الاشتراك، ويُسمعه الثناء على المرسلين قبل محمد ﷺ، والثناء على مريم وابنها عيسى- عليهما السلام-، يكون هذا النصراني أقرب للإيمان بمحمد ﷺ ، وقد أمرنا ربنا أن يكون جدالنا بالتي هي أحسن، وإظهار هذه المساحة المشتركة بين الداعية والمدعو من التي هي أحسن في التعامل والجدال. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

تعالق القول والعمل:

أيها الداعية: إذا حدثتك نفسك بقول الله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، فحدِّثها بتمام الآية: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾[فصلت: ٣٣].

الدعوة إلى الله يرتبط القول فيها بالعمل، وينبغي على الداعية أن يتعاهد دعوته دائماً في ارتباط القول فيها بالعمل، سواء في خاصة نفسه، أو دعوته، حيث يكون الكلام الطيب نابعاً من العمل الطيب، ويورث العمل الطيب.

ينجح الخطيب حين يخرج المصلي يبحث عن أمٍ يبرها، أو عن قريبٍ يصله، أو فقير يطعمه، أو ملهوفٍ يغيثه، أما إذا عاد المصلي بقلبٍ يشبه قلبه قبل الصلاة، ولا زاد من بره وإحسانه، فقد فاته النجاح، وارتباط الدعوة إلى الله بالعمل الصالح هو إغراءٌ بالعمل، وليس تزهيداً في الدعوة، فلا يسوغ حينئذ أن يترك أحدهم دعوته؛ لأنه مقصرٌ في العمل، بل يستمسك بدعوته ثم يجتهد في تدارك العمل، ويجعل من دعوته سوطاً يضرب به كسله وتفريطه في العمل الصالح.

أصدقت أم كنت من الكاذبين:

حبُّ الدعاة إلى الله واحترامُهم وإكرامهم لا يعني السكوت عن أخطائهم، أو عدم التحقق من أخبارهم وأعمالهم؛ فإن ذلك يضر بالدعوة نفسها، التي كانت هي السبب في احترام هؤلاء الدعاة وإكرامهم. لقد جاء هدهد سليمان داعياً للتوحيد، وفي نفسه الغيرة على دين الله، جاء للملك الصالح المبعوث بالتوحيد (سليمان عليه السلام)، وأخبره متوجعاً من قومٍ يسجدون للشمس من دون الله، وهذه الدعوة والغيرة وحب التوحيد، لم تُعفِ الهدهد من اختباره، والتحقق من أخباره: ﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [النمل: ٢٧].

وبهذا المنهج الصارم، ستبقى الدعوة إلى الله أكثر نقاء وصفاء.

لقد علمنا رسولنا الكريم أن إماطة الأذى عن الطريق صدقة.. والدعوة إلى الله أجلُّ الطرق، فإنه طريق إلى الله، فلا ترى أذى فيه إلا احتسبت الأجر في إماطته.

إن مما يحز في النفس أن تسمع الكذبة تتناقلها الألسنة، إنما روجها وأشاعها أحد الدعاة، فإن كان ناقلاً صح لومُه في تساهله وعدم تحققه، ويعظم الخطب إن كان هو اختلقها مهما كانت نيته.



واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام:

الشعور بالوصاية على الناس ليس من أخلاق الدعاة الله، الوصاية فيها معنى التزكية للنفس، والكبر على الناس، بينما الداعية إلى الله خائف على نفسه كما هو خائف على الناس، ويرى أنه مُعرَّضٌ للذنوب كلها، بما فيها الشرك الأكبر، لولا حفظ الله.

إمام الحنفاء والموحدين، أبوالأنبياء، إبراهيم -عليه السلام- يخاف على نفسه من الشرك: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، بينما تجد بعضنا يخاف على الناس، ولا يخاف على نفسه!

بمثل هذا الشعور، تنكسر حدة النفس وتزكيتها على الخلق، ويذوق القلب لذة التعلق بالله وحد، في هدايته وثباته: «يا عبادي كلكم ضالٌّ إلا من هديته؛ فاستهدوني أهدكم».

ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم:

القلب الأكثر رسوخاً في الهداية هو الأكثر تواضعاً والأقل ادّعاء، وحين يطفو على النفس شعورٌ بزيادة الإيمان، والتفوق على الآخرين، فإن ذلك من ضعف إيمانه لا من قوته.

وقد حكى لنا القرآن مقالة الأعراب في الادِّعاء، وعالجها في آخر سورة الحجرات: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٤- ١٨]

واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات:

المؤمن والداعية إلى الله يتعامل مع ذنوب الآخرين بالاستغفار، وليس بالملاحقة والفضح والتعيير: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

وفي هذا الاستغفار معانٍ ضرورية لقلب الداعية: فهو مشغول بذنبه قبل ذنوب غيره، وفيه معنى الانكسار والتواضع، وذنوب المؤمنين لها في دعائه نصيب، وهذا يورث الحب والرحمة والشفقة، ويطرد القسوة والتعيير وغمط الناس وازدراءهم.

إن ربك هو يفصل بينهم:

كن على يأسٍ من حسم الخلافات في الحياة الدنيا، والدعوةُ إلى الله لن تحول جميع الخلق إلى هداة مهتدين: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٥]، فحسم الخلاف والفصل

التام بين المختلفين من أعمال الربّ -جل جلاله- وسيكون في يوم الفصل، وما أدراك ما يوم الفصل!

في الدنيا لن يكون هذا الفصل، وستظل كل طائفة معجبة بدينها وأفكارها وتدعو إليه غيرها، وسيظل الدعاة إلى الله في حياتهم الدنيا يعملون في هذه الدعوة، ولن يأتي اليوم الذي تتعطل فيه الحاجة للدعوة إلى الله.

استحضار هذا المعنى يخفف من الطموح الذي قدَّر الله خلافه، ويساعد على مواصلة الطريق دون يأسٍ أو انقطاع، ويجعل الداعية أكثر ارتباطاً بمهمته الدعوية وعدم الانشغال بفصلٍ لا يقدر عليه إلا الله.

العبرة في الدعوة بـ (النية) لا بـ (النتيجة):

الداعية الصادق لا ينقطع عن دعوته لقلة المستجيب؛ فإنه يعمل لآخرته، ولو كان يعمل لدنياه، لحسب أرباحه وخسائره بعدد المستجيبين لدعوته، وعزاء الدعاة إلى الله: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

نجاح الداعية في مواصلة دعوته لربه دون كلل ولا ملل، وإن وجد نفسه في نهاية طريقه دون استجابة، فإن له في بعض الأنبياء أسوة حسنة: «ويأتي النبي وليس معه أحد» كما قال ﷺ.

اصبروا وصابروا:

إن النقاء والصفاء الذي يعيشه الداعية في داخل نفسه لا ينبغي أن يصل إلى حدٍّ يعجز معه عن التعايش مع نقائص المجتمع، وأخطائه، وخطاياه؛ فإنه إن عجز عن ذلك، هرب إلى العزلة، وانكفأ على خاصة نفسه، بعيدا عن المجتمع ودعوته وإصلاحه.

هكذا يريد الشيطان وأتباعه: أن تخلو الساحة من خصومهم؛ حتى تجتالهم الشياطين فيما يغضب الله ويسخطه. الرضا عن نقائص المجتمع خطيئة، والهزيمة أمامها ضعفٌ ونقيصة، ومقاومة ذلك بثباتٍ ودعوة وصبرٍ وحكمة.. حقٌّ وفضيلة.

النقاء الذي يحبه الداعية لن يكون في هذه الدنيا، إنما هو في الجنة وحدها. في الجنة (وحدها) لن تسمع ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦]، أما في هذه الدنيا فسيظل الداعية يسمع لغواً وتأثيماً، وهو يصبر ويصابر في استقامته ودعوته.



الوقفة الثالثة

عن الإصلاح

أولاً: شرف الإصلاح وضرورته:

١- من شرف الإصلاح أنه يدّعيه ويتمناه كلُّ أحد: البَرُّ والفاجر، والصالحُ والفاسد، حتى فرعون حارب نبي الله موسى -عليه السلام- باسم الإصلاح ومحاربة الفساد: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾[غافر: ٢٦]، ويقول لقومه: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، وكأنما الفرعون صاحب الإصلاح والرشاد، ونبي الله موسى صاحب الفساد!

نعوذ بالله من الكذب والضلال المبين!

والمفسدون في كل زمان رغم إفسادهم إلا أنهم يظلُّون متشبثين بهذا الاسم الشريف (الإصلاح): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

٢- ودعوى الإصلاح وحدها لا تكفي، فهناك فرقانٌ ظاهرٌ بين الإصلاح والإفساد، مهما بالغ صاحبه في الدعوى، ولذلك جاء الردُّ الرباني الحاسم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢].

٣- وهذا الفرقان بين الإفساد والإصلاح أَوْدعه الله في فطرة الخلق،

وأنزله وحياً يهدي به الناس، ويميز به بين الحق والباطل، ومن تولّى عن هذا الوحي؛ فإنه مفسد لا محالة؛ فالصلاح والفساد يُعرف بالوحي المعصوم، الذي لا تدخله الأهواء ولا الأدواء، فما وافق أمر الله فهو إصلاح، وما خالفه فهو إفسادٌ ولا ريب: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد:٢٢]، فجعل الفساد نتيجة حتمية للإعراض عن الوحي.

قال شيخ المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-: «والإفساد في الأرض، العمل فيها بما نهى الله جلّ ثناؤه عنه، وتضييعُ ما أمر الله بحفظه، فذلك جملة الإفساد» (تفسير الطبري، آية ١١ من سورة البقرة)

٤- ولأن الإصلاح ضرورة في حياة البشر؛ جعله الله فطرةً في النفوس السوية، يشق عليها ترك الإصلاح ولو حاولت ذلك، فهذا نبي الله موسى وهو من أقرب الخلق إلى ربه، وأكثرهم استجابة لأمره، حين ذهب إلى العبد الصالح، وقد زكّاه ربه في علمه، وزكّاه في رحمته: ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥]، حتى إذا لقيه، أعطاه ما اشترطه عليه في صحبته: ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف: ٧٠]، ورغم ذلك؛ فإن موسى لم يستطع بنفْسِه الزكية، وفطرته القوية أن يترك الإصلاح، ويسكت عن ما يراه من أمر الباطل، وهكذا هي النفوس الزكية، لا تصبر عن الإيجابية، ولا تصبر عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لقد حاوَلَ موسى.. ثم لم يستطع عليه صبراً.

٥- والرغبة في الإصلاح ومناهضة الفساد طاقةٌ نفسية عجيبة، تشبه الطاقة التي تدفع الإنسان للغذاء، وتحمله بحثاً عن الرواء.

فحين تمالأ القوم لقتل موسى -عليه السلام- وهو من الإفساد في الأرض- تحركت طاقة الإصلاح المودَعة في نفس ذلك الرجل، وجاء من أقصى المدينة يسعى؛ حتى ينقذ حياة موسى: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

هذه الكلمة تستحق كلّ ذاك الجِدَّ والجَهد، ولذلك؛ ذكره ربه على سبيل الثناء والمدح؛ لأن الله يحب المبادرة والإيجابية في عمل الخير والإصلاح: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القصص: ٢٠].

ويشبه هذه اللفتة والإشادة، والموقف والريادة ما حكاه الله في سورة (يس) عن قصة الرسل الثلاثة مع قومهم، وقد كذّبوهم وهمّوا بهم: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]، وكان من خبره ما كان، في حسن العاقبة والمآل.

٦- وللمجتمع المسلم شخصيةٌ اعتبارية، هي الأخرى يجب أن تكون فاعلةً في الإصلاح، وألا تترك الفساد ينتشر وسط سكونٍ وغفلةٍ وتشاغلٍ من أهل الصلاح والتقوى، فإذا تنازعت طائفتان داخل المجتمع، يجب

أن يتدخل المجتمع بينهما؛ رحمةً وإصلاحاً وحزماً، وتصل الفاعلية هنا إلى حد القتال للطائفة الباغية، إذا استوفى القتال شرطه، وهذا مظهرٌ صارخ في إيجابية المجتمع المسلم وإصلاحه:

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحجرات: ٩].

في هذا المجتمع الفاعل المُصلِح لن تجد يتيماً بلا كفالة، ولا كبيراً بلا رعاية، ولن تجد دمعة حزينة إلا ولها يدٌ حانية، تتلمس أوجاعها، وتمسح أحزانها، وفي هذا المجتمع الفاعل لن تجد الشيطان سيداً مطاعاً؛ فإن ما يُحدثه من فسادٍ وفتنة له رجالٌ مصلحون، يقاومونه بالإصلاح والتوبة.

٧- أما إذا خلا المجتمع من المصلحين، واستبدَّت بهم الغفلة والشهوة، وأصبح الفساد بلا مقاومة؛ فإن هذا المجتمع قد استوجب العقوبة الإلهية، بمن فيهم من الصالحين؛ فإن الصلاح الذي لا يقوى على نشر الإصلاح، هو كذلك لا يكفي لمنع العقوبة، فهو صلاح لا يدفع ولا يمنع: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧].

وفي الحديث تسأل أمُّ المؤمنين رسولَ الله ﷺ: أنهلك وفينا الصالحون؟

قال ﷺ: «نعم، إذا كثر الخبث» [صحيح مسلم(٢٨٨٠)].

فالإصلاح والمصلحون ضمانةٌ من العذاب، لو كانوا يعقلون.



ثانياً: وللإصلاح أعداءٌ له وخصومٌ:

١ – سنة الله في الحياة الدنيا أن يكون فيها العداوة: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦]، وأن يكون فيها المدافعة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وأن يكون في الأرض من يفسد فيها ويسفك الدماء؛ لحكمةٍ يعلمها الله جلّ جلاله: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

٢– وهذه العداوات لا سبيل للنجاة منها، ولا طريق لاسترضاء الأعداء-على الجملة-، مهما حاذر المصلحون من الأخطاء، ومهما اختاروا في سبيل إصلاحهم الطريق الأرفق والأرحم، فإنهم لن ينجوا من العداوة والأعداء، مادام لهم في الإصلاح قصدٌ وعمل.

يكفيك جرماً عند المفسدين أنك صالحٌ أو مصلح !

يكفيك جرماً عند أهل الخيانة أنك من أهل الأمانة !

﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، تطهُّرهم فحسب؛ سببٌ كافٍ للعداوة، والعملِ على إخراجهم من قريتهم !

٣- وهذا لا يعني أن جميع العداوات للمصلحين هي بسبب الإصلاح، بل يحدث من المصلحين بعض الأخطاء التي تستوجب المراجعة والتصحيح، ولا خير في إصلاح يستثني نفسه من المراجعة الذاتية، والإصلاح الداخلي، إنما المقصود هو اليأس من طريقٍ إصلاحي، لا تضحية فيه ولا أعداء.

ولا يسوغ للمصلح أن يستدل بالعداوة والتضحية وحدها على صحة طريقه ومنهجه؛ فـ(التضحية) ليست دليلاً شرعياً على صحة الموقف، كما أن (السلامة) ليست دليلاً على صحة الطريق، والدليل في موافقة الكتاب والسنة، وطريقة الاستدلال (بالسلامة) أو (التضحية) وحدها على صحة المنهج والموقف، طريقة خاطئة في الاستدلال، وقد حدث بعض هذا من قِبَل المنافقين: استدلوا (بالسلامة) على صحة موقفهم واختيارهم: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

٤- وأعداء المصلحين على أنواعٍ شتى: فمنهم المكاشح بعداوته لا يتخفَّى ولا يتوارى، وهؤلاء أقل خطراً من قومٍ آخرين يعيشون بين ظهراني المسلمين، ويتكلمون بلسانهم، ويتظاهرون بحبهم وولائهم، وهم يُضمرون العداوة، ويسعون بالفساد، ويتربصون بهم الدوائر، وربما اتخذوا المساجد والأعمال الصالحة غطاء يستر كيدهم وتدبيرهم،

كما فعلوا في مسجد الضرار، وفيهم أنزلت آيات كريمة ستظل درساً بالغ الحكمة في موقف المصلحين ممن أراد تمرير مشاريعه المفسدة، عبر لافتات مشروعة أو مقبولة.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٧].

٥- وبين المصلحين وأعدائهم جمهورٌ محايدٌ يسمع للطرفين، وربما اقتنع بقول المصلحين تارة، واقتنع بمقالة أعدائهم تارة أخرى، وعلى هؤلاء تكون المنافسة والتحدي بين الطائفتين، وعلى المصلح ألا يصيبه الإحباط، إذا رأى لبعض مقالات الأعداء آذاناً صاغية في صفوف المحايدين الذين لم يحسموا خيارهم، أو رأى بعض الصالحين يسمع بعض كلامهم، ويتأثر به، ففي أفضل المجتمعات هناك آذانٌ طيبة، تسمع وتتأثر بأصوات الفتنة والنفاق: ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٧].

والواجب حينئذٍ مزيدٌ من العمل والمنافسة والإقناع والتأثير، وعدم الانشغال بالحكم على هؤلاء المتأثرين، أو الإحباط من صنيعهم.

٦- ومما يساعد هذه العداوات والأعداء: خوفٌ في بعض النفوس من أي تغييرٍ أو إصلاح، كما قال الله: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ

نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ ﴾ [القصص: ٥٧].

والتغيير والانتقال لا يخلو من خوفٍ وإزعاج، والطفل يترك بطن أمه الضيق المظلم، ويقبل إلى سعة الدنيا وفسحتها، وهو يصرخ ويبكي.

فالإصلاح يحتاج إلى نفوسٍ كبيرة تصمد لهذه المخاوف، وتتجرد للحقائق، وتصبر على طول الطريق ومشاقِّه، ويحتاج لقدرٍ من التدرُّج المُطَمئِن أن الانتقال سيكون لما هو خير وأولى.

٧- ومِن أشد الأعداء للرسل والمصلحين: (الثبات): ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ ﴾ [لقمان: ٢١].

والثبات على الشيء يصيره عادةً مستقرة، قال ابن القيم-رحمه الله-: «ما على العبد أضر من ملك العادات له، وما عارض الكفار الرسل إلا بالعادات المستقرة، الموروثة لهم عن الأسلاف الماضين، فمن لم يوطن نفسه على مفارقتها والخروج عنها، والاستعداد للمطلوب منه، فهو مقطوع، وعن فلاحه وفوزه ممنوع» (مدارج السالكين: ١٥٢/١).

ومفارقة كل عادة مستقرة أشبه بالمستحيل، ومحاربة العادات على الجملة، غير ممكن وغير مطلوب، ولكن تلك العادات المشتملة على سوء ومكروه.

والثبات لا يُحمد مطلقاً، ولا يُذم مطلقاً، إنما يحمد الثبات، إذا كان عن وعيٍ وبصيرة، وكان على حقٍ ودين، ويذم الثبات، إذا كان عن تقليدٍ وعَماية، وكان على إلفٍ وعادة.

٨- ومن أكثر الطبقات خوفاً من التغيير والإصلاح هي الطبقة المترفة، المستفيدة من قوانين المجتمع وشكله وعاداته، وأي تغيير فيه قد يُفقِدها بعض ترفها ونعيمها، إضافة لما يورثه الترف إذا تطاول عهده من عادات وأخلاق، مجافية للصلاح والرشاد: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤].

ثالثاً: ولأعداءِ الإصلاح وسائلُهم في العداوة:

١- من أهم وسائل الأعداء: الحملات الإعلامية الجائرة في تشويه المصلحين، ونواياهم، واختراع التُّهم الباطلة، والتخويف منهم، ثم الملاحقة الأمنية، والبطش الظالم، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

٢- ومن ذلك: ما اخترعه فرعون من ذنبٍ يريد أن يدين به السحرة حين آمنوا بموسى- عليه السلام-، ويبرر لنفسه البطش بهم: ﴿ قَالَ

﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ [طه: ٧١]، فالطغاة لا يعجزون عن تلفيق التهم، مهما احتاط المصلحون، ويسهل عليهم أن يخترعوا الأعذار؛ لبطشهم وملاحقتهم.

٣- التشكيك في النوايا، والنوايا مهرب يفزع إليه أعداء المصلحين، حين يشرقون بحجتهم وأدلتهم: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ ﴾ [سبأ: ٤٣].

وفي قصة المصلح الرباني- موسى عليه السلام- قالوا له بعدما رأوا الآيات البينات على صدقه ونصحه: ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٧٨].

هربوا من منطقة الحجج والبينات إلى منطق اتهام النيات.

٤- الاتهام بالمؤامرة، وهي تهمة عريّة عن الدليل والبرهان، يفزع إليها أعداء المصلحين؛ هروبا من البينات والأدلة والبراهين: ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ [طه: ٧١]، ﴿ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

وفي موقفهم مع محمد ﷺ: ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ [ص: ٦]

وهذا يعلمنا ألا نبالغ في الاعتماد على تهمة المؤامرة ضد خصوم الإصلاح؛ فالتحليل المؤامراتيّ، يعفي العقل من جهد جادٍّ في الرصد والتحليل، ومعرفة الفرق بين كل حالة وحالة، فإذا أُطلق العنان للتحليل المؤامراتيّ، تشابهت الحالات، واكتفى العقل عن الرصد والتفكير بالاتهام المجمل.

كما أن المؤامرة دليل غير كاشف، ولذلك يعتمد عليها أهل الباطل ضد أهل الحق، فهي لا تكلفهم أدلة وبينات، وهذا لا يعني إنكار وجود المؤامرات، والتآمر ضد أهل الحق والإصلاح، ولكن ينبغي أن نعتمد على الحجج والبينات، والأدلة والبراهين، أكثر من اعتمادنا على حقيقة نعتقدها لا نملك بينة ظاهرة عليها.

٥- التهوين من عدد المصلحين وأتباعهم، وأن غالب المجتمع ضدهم: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴾ [الشعراء:٥٤].

فإذا ظهر أمرهم، وفاتتهم القدرة على التقليل من عددهم، اتهموهم بأنهم قسموا المجتمع وفرّقوه، بينما هذا أمرٌ طبيعي، حين يكون داخل المجتمع طائفة تصر على مناوأة الإصلاح، ومحاربة أهله: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ ﴾ [النمل:٤٥].

٦- وبعد أن تأخذ حملات التشويه حقها، يأتي الحل الأمني ملاحقةً وبطشاً؛ طمعاً في اختفاء الإصلاح وأهله: ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ

وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ [طه:٧١]، ﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾.[الأعراف:١٢٧]، ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾[الشعراء: ١١٦]، ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾[الأعراف:٨٨].

رابعاً: وللإصلاح رجالُه وأخلاقُه:

١- من أهم صفات المصلح: الرحمة والإحسان، وفي قصة يوسف -عليه السلام- ارتباطٌ عجيب بين الإصلاح والإحسان منذ أن كان مع أصحابه في السجن: ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[يوسف: ٣٦]، وفي حال عزه وسؤدده: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٧٨]، وفي عاقبة أمره ومآله: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠].

وأيُّ إحسانٍ أعظم من إحسانه إلى إخوته، وهم في حاجته، وهو في سؤدده ورئاسته، وقد أبعدوه عن أبيه، وهموا بقتله، وجعلوه في غيابة الجُبّ على حداثة سنه وضعفه، وأخذه القوم بعيداً، وباعوه بثمنٍ بخسٍ دراهم

معدودة وكانوا فيه من الزاهدين، ودخل السجن غريباً وحيداً، ثم لازالوا بعد ذلك يقولون: ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ [يوسف: ٧٧].

أيُّ إحسانٍ راسخٍ في نفس هذا المصلح، حين يغلبُ الإحسانُ بقيةَ النوازع، ويجود بالسّماح والغفران دون تريث: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ [يوسف: ٩٢].

حتى الألفاظ في غاية الرقي والإحسان، حين يضطره سياق الشكر أن يذكر المحنة، وما وقع له: ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فالشيطان هو سبب المشكلة، وهو وإخوته على مسافة واحدة من المشكلة.

لا أظنه يقدر على مثل هذا الإحسان إلا نبي، ولكن التشبُّه والمحاولة، والتسديد والمقاربة.

٢- إنّ ارتباط الرحمة والإحسان بالمصلحين أمرٌ فطري، والقسوة والغلظة والبطش عمل المستبدين المتكبرين: ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [القصص: ١٩].

هما طريقان في عين الفطرة السوية: طريق المصلحين، وفيه الرحمة والإحسان، وطريق الجبارين، وفيه القسوة والغلظة.

لا تحاول أن تقنع نفسك أن بذاءة اللسان، والأخلاق السيئة والقاسية هي من الغيرة على دين الله، ومما يحبه الله ويرضاه.

٣- وفي صفات سيد المصلحين، قال الله: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾. [التوبة: ١٢٨].

لا يوجد إصلاح حقيقي يقوده «الحقد».. الحقد يقود الدمار والانتقام، وفي قلوب المصلحين يجب أن تسود الرحمة والرأفة، والعفو والإحسان، والتحدي الأكبر في الثبات على هذه المعاني، رغم طول الطريق ومشقته وعنته.

٤- ومن أخلاق المصلحين ومهاراتهم: الإعراض الجميل عن الخصوم، والصمود إلى مشروعه النافع.

إن كثرة الأمر بالإعراض في القرآن ملفتة للانتباه، فالمصلح لا يسمح لردة الفعل أن تُخرِجه عن هديه وهدفه: ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٩].

يهزمك خصمُك.. حينَ يسلب منك اعتدالك وهدوءك، أو حين تنشغل به عن الاشتغال بنفسك، والمصلح مشغول بمعركته مع نفسه، في عفة لسانه، وكظم غيظه، ومواصلة طريقه.

والإعراض دربة تحتاج إلى تدريب ومجاهدة، وهو عملٌ إيجابي وليس

سلبياً، تُعرض عن أذيتهم، ولا تنقطع عن إصلاحك، ومشروعك النافع: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٤ ٥٥]، فالأمر بالتولّي عنهم، مقرونٌ باستمرار العمل والتذكير.

والعاقل من اتخذ من أذية خصومه طاقةً جديدة، تورثه الإصرار، والتحدي على مواصلة الطريق، ولو انشغل المصلحون بما يقوله خصومهم، وانهمكوا في ردود الأفعال على أذيتهم، لم تتحقق مقاصد الإصلاح وآماله.

٥- ومما يساعد على الإعراض الجميل، وعدم الاكتراث الكبير بما يقولونه من سب وشتيمة وتهمة: أن هذا طريق المصلحين، ولم يسلم أحدٌ من ألسنة الخلق، حتى بلغت أذيتهم وفجورهم لمقام الرب عز وجل: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ﴾ [المائدة: ٦٤]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وعزاء المصلح أن المغرضين لا يملكون إلا الأذية، أما البراءة الحقيقية، والوجاهة، فمن الله وحده: ﴿ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

٦- وزادُ المصلح في طريقه الطويل هو التوكل على الله، والصبر، واحتساب الأجر في كل ما يلقاه من ضُرٍّ وابتلاء: ﴿ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا

مُنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء:٥٠]، ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ﴾ [الأعراف:١٢٨]، وقد قالت الرسل لأقوامهم: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[إبراهيم: ١٢]. وفي وصية الله لنبيه ﷺ مع أذية الكافرين والمنافقين: ﴿ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤٨].

وفي الصلاةِ، والذكرِ، والدعاءِ، مددٌ وقوة، تعمر القلب بالإيمان، والتوكل، وإيثار الآخرة على الأولى، ومن كان مع الله لم يستوحش في طريقه، واسترخص كل غالٍ في سبيله، هم يهددونه بالقتل.. وعامة دعائه في سجوده: الشهادة في سبيل الله ! ولكنهم لا يفقهون.

٧- ومما يجب مراعاته في الإصلاح: شرط القدرة والتخصص، فالرغبة والنية الصالحة وحدها لا تكفي، وقد قال رسولنا ﷺ في قصة تأبير النخل: «أنتم أعلم بأمور دنياكم».

فمعرفة المصلح ما يحسنه وما لا يحسنه، وما هو من شأنه وما ليس من شأنه أمرٌ في غاية الأهمية، ويوسف -عليه السلام- قال للملك: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٥].

فالعلم والقدرة هنا شرط لا يقل أهمية عن الأمانة والنية الصالحة.

٨- ومما يحتاجه المصلح: وضوحُ الرؤية؛ فإن وضوح الرؤية هو الذي

يستوعب كافة التفاصيل، فلا يضرب بعضها بعضاً، بل تتحول إلى اتجاه محدد، نحو رؤية واضحة تعود على المجتمع بالنفع والفائدة.

لا ينبغي أن يغرق المصلح في التفاصيل حتى يفقد (البوصلة)، ووضوح الرؤية أنقذ أمة من المجاعة والمسغبة، فاستعدوا للسنين العجاف، بالعمل والادخار: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ [يوسف: ٤٧].

خامساً: وللإصلاح طرائقُه وأساليبُه:

١- الاتِّباعُ والإصلاح ليس حماسًا فحسب، بل هو فقهٌ وبصيرة قبل أن يكون عملًا وعزيمة، ويخسر بركةَ الهدي النبوي من اكتفى في المتابعة بظاهر العمل، وغفل عما يتضمنه ذلك العمل من شروطٍ عديدة، فيها زمان ومكان وإمكان، وطريقة وأخلاق، فإذا اجتمعت جميعا كانت من الحكمة التي تشهد لرسول الله بالإمامة والسيادة.

تَعجَبُ ممن يتعامل مع الاتِّباع والتشبُّه بالهدي النبوي بسطحيةٍ بالغة تكتفي بمراعاة ظاهر العمل، ولو فارق ما يتضمنه ذلك العمل من

حكمةٍ في مراعاة الوقت والمكان والطريقة والأخلاق، وما يترتب عليه من مصلحة تربو على المفسدة، وبالمثال يتضح المقال، فقد أُمِر رسول الله ﷺ باتباع أبيه إبراهيم -عليه السلام- كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣]، ولا يخالف إبراهيم عليه السلام إلا من سفه نفسه: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٠].

ومِن أعظم مواقف إبراهيم مع التوحيد ومنابذة الشرك، قصة هدمه للأصنام، فقد جعلها جُذاذًا في قصةٍ عجيبة خلّدها القرآن، وتحمَّل في سبيل ذلك شيئًا عظيمًا، حيث أجَّجوا نارهم العظيمة، وهو يراها وينتظر مصيره، ثابتًا صابرًا محتسبًا، ورموه فيها، لو لا أن الله سلَّم وقال لها: ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

لقد سمع رسول الله هذه القصة وهو يدعو للتوحيد في مكة، والأصنامُ تُحيط ببيت الله الحرام، الذي رفع قواعده إمامُ الحنفاء، والذي أُلقي به في حُمَم النار؛ محاربةً للأصنام وأهلها.

فلماذا لم يبادر رسول الله وأصحابُه بهدمها ؟! ولماذا لم يفعلوا ذلك مهما

كان الثمن ولو تحمَّلوا في سبيل ذلك حُمَمَ النار ؟!

أليس الاتباع والتشبه بإبراهيم عليه السلام يقتضي ذلك ؟!

أليس التوحيد هو أعظم ما تدعو إليه الأنبياء، وهذه الأصنام هي الشرك الأكبر، وفي أطهر وأول بيت وضع للناس؟!

كلّ هذه الأسئلة تعصف بعقل ذلك الذي يرى الاتّباع عملًا وعزيمة، وينسى أنه قبل ذلك فقهٌ وبصيرة.

لقد مكث رسول الله ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة ولم يهدم الأصنام، ثم عاد لمكة معتمرًا، وطاف بالبيت العتيق، والأصنام حوله تُلوِّث المسجد الحرام بالشرك الأكبر دون أن يهدم منها شيئا، حتى إذا فتح مكة، جاء (الوقت) الأنسب لهدمها على الأرض بعد أن هدمها في القلوب، وبعد أن جاءت القوة التي تحمي التوحيد، ولا تسمح للشرك أن يعود في مكة على هيئةٍ أقوى وأرسخ، وأخذ يهدمها وهو يتلو: ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١].

حُبًّا في التوحيد؛ تأخر رسول الله ﷺ في هدم الأصنام، ولاريب أن رسول الله أحظى الخلق بإبراهيم عليه السلام، وأكثرهم (اتباعا له)، وقد كان اتباعه بأبي هو وأمي ﷺ فقهًا وحكمة وبصيرة، قبل أن يكون همَّة وعملًا وعزيمة.

الإصلاح والدعوة والاتباع إذا خلت من الحكمة ومراعاة الزمان والمكان والإمكان لم يكن لها حظٌّ من تلك الأسماء الشريفة إلا النية، والنية الطيبة وحدها لا تُقيم حقًا ولا تهدم باطلًا.

أخطر شيء في الاتباع أو الإصلاح حين نتعامل مع الأحكام الشرعية بعَماية، ونكتفي بظاهرها كيفما اتفق، ولو كان ذلك يعود على أصل الفعل بالنقض والإفساد، وإذا رأى نتائج فعله الخاطئ ومآلاته توهَّم أنها من الابتلاء في ذات الله.

الاتباع في الحكمة المُستبْطَنة داخل العمل أهم وأعظم من الاتباع لظاهر العمل، وربما تأخر المصلح في تنفيذ بعض الأحكام الشرعية كما تأخر رسول الله في هدم الأصنام؛ يبتغي لها أفضل الأوقات والأحوال: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

٢- ليس الإصلاح على وجهٍ واحد، فبينما كان موسى -عليه السلام- يحمل عبء الإصلاح الظاهر المعلن، حكى لنا القرآن قصة إصلاحٍ أخرى من داخل القصر، رجلٌ مؤمنٌ من آل فرعون يكتم إيمانه، وفي الآيات التي سجلت لنا تفاصيل كلامه وحرقته ودعوته بما يناسب حاله ما يبين لنا أن الإصلاح وجوهاً مختلفة، وأساليب متنوعة، والحكمة الشرعية تختار وتنتقي.

خطاب مؤمن آل فرعون مدرسة في (الإصلاح من الداخل)، بكل شفقة ورحمة وحكمة. وقد احتفى القرآن به، وأطال في حكاية أمره وإقناعه.

يستحق هذا الخطاب مزيداً من البحث والدرس.

٣- ومن التنوع في الإصلاح: التنوع في التعامل مع الخصوم والأعداء، فليسوا سواءً، وما يصلح لهذا قد لا يصلح لغيره، واشتراكهم في أصل العداوة أو الشرك لا يوجب التسوية في التعامل معهم. ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة: ٨٢].

كيف يفهم هذه الآية، من يجعل أعداءه في سلةٍ واحدة ؟! التمييز بين الأعداء، وإدارة الصراع معهم، عملٌ شرعي، وهديٌ نبويٌّ.

لقد فارق رسول الله ﷺ في تعامله بين عمَّيهِ المشركَين: أبي طالب وأبي لهب، وفارَق في تعامله بين مشركَين آخرين: أبي جهل، يقاتله وينازله في بدر، ويُقتَل هناك شرّ قتلة، والمطعم بن عديّ، الذي يقول عنه رسول الله بعدما رأى أسارى بدر: «لو كان المطعم بن عدي حياً، ثم كلمني في هؤلاء النتنى، لتركتهم له».

إنه مشرك بالله، وهذا يوم الفرقان، وهؤلاء الأسرى هم فلذات أكباد عدوهم اللدود، ومع ذلك، لو سأله لأعطاه، هنا يجب أن ندرك أن البراءة

من الشرك وأهله لا تعني المساواة في التعامل معهم، وعداوة الإصلاح لا تعني عدم التفريق العادل والحكيم بينهم، والصراع كما هو عزيمة وهمة، فهو إدارة وحكمة، وحيث نفكر نحن كيف نهزم خصومنا، فإن كبار المصلحين يفكرون أيضاً كيف يكسبون بعض خصومهم، وكيف يحيدون بعضهم.

٤- في بعض الأحيان قد يوافق المصلحُ عدوَّه في أمرٍ معين، المصلح على نيةٍ وعدوُّه على نية أخر، ومن التزم أبداً بمخالفة عدوه، جعل قيادته في يد العدو، فكلما عمل عدوه عملاً، عمل المصلح خلافه، هذا ليس إصلاحاً له رؤية مستقلة، بل هو مناكفة عبثية تصل إلى حد التبعية للعدو، عن طريق مخالفته.

يقول الله لنبيه: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ [التوبة: ٩٥].

لقد أرادوا أن يعرض رسول الله عنهم، ووافقهم رسول الله في الإعراض؛ لأنه يختار قراره بناء على رؤيته، والأصلح لدينه، ومشروعه، ولا يهم بعد ذلك وافقهم أو عارضهم، وأحياناً أخرى، يتفق مع عدوه على مشروعٍ واحد، إذا كان هذا التعاون يحقق مقاصده النبيلة، كما هو الحال في حلف الفضول، وكما توافق هو ومن معه في المدينة من اليهود

وغيرهم، على ما يحفظ المدينة، ويحقق لها أمنها وحمايتها.

المخالَفةُ الدائمة ليست إصلاحاً، والموافقة الدائمة ليست إصلاحاً، والإصلاح رؤية واضحة ومستقلّة من تبعية الموافقة والمخالفة.

٥- ومن أهم أنواع الإصلاح، وهو الذي يُبقي على الإصلاح نقاءه وألقه: حركةُ التصحيح والإصلاحِ لمسيرة الإصلاح نفسه، الإصلاحُ يجب أن يرتبط بالمبدأ، وأن يتحرر من الأشخاص والتجارب، ولا يكون هذا التجرد إلا إذا تجرع أصحابه مرارة الاعتراف بالخطأ، وأمام خصومه المناوئين.

أعمال الإصلاح ومشاريعه ليست هي النسخة الأصلية من الإسلام، بل هي اجتهادات تخطئ وتصيب، ولذلك؛ يجب أن نصغي للمخالفين والمناوئين كذلك؛ فقد يقول المناوئ بعض الحق، والاعتراف بالخطأ حينئذ هو تجردٌ للحقِّ وللإصلاحِ ومبادئه النبيلة.

وفي قصة قتل ابن الحضرمي على عهد النبوة أسوة وعبرة.

لقد انتقد الأعداء صنيعاً فعله المخلصون للإسلام، والمضحُّون من أجله، قاتلوا في الشهر الحرام في القصة المشهورة، وانتقدهم المشركون المحاربون الظالمون، فنزل القرآن بالمنهج العظيم: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾[البقرة: ٢١٧].

هنا منهج عظيم لن نقف عليه كما ينبغي، حتى نستحضر ما بين الفريقين من سنوات طويلة، مليئة بالظلم، والاضطهاد، والبغي، والعدوان.. ولكن الحقّ أحقّ أن يتّبع.

ربما يجد المصلح في خطايا خصمه عذراً في عدم الاعتراف بخطئه، ولكن هذا سيجعل المصلح يستمرئ الخطأ، حتى يشبه خصمه، وكل مخطئ في هذا الطرف ينظر لمخطئ في الطرف الآخر، حتى يفقد الإصلاح تميزه وهدفه.

إنّ تركيزك الطويل في أخطاء خصمك يسمح لأخطائك أن تعيش وتنمو بأمان.

لابد من اليقظة التامة والمراجعة المستمرة؛ حتى لا تُثقِل مسيرةَ الإصلاح أخطاءُ التجارب، يقظةٌ تكشف الخطأ في تصرفات الأصدقاء؛ للتصحيح والتدارك، وتكشف الصواب والحق في تصرفات الخصوم؛ لتسبق وتنافس، ولا يوجد في طوائف الناس من هو شرٌّ محضٌ، ليس فيه خبرة أو حكمة، ولا يوجد خيرٌ محض، ليس فيه خطأ أو زلل.

وقف موسى -عليه السلام- أمام فرعون، رسولاً من رب العالمين، وحين خاطبه بأمر ربه، قال لموسى: ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨-١٩].

لا مجال إذن لإنكار الخطأ، مهما كانت جرائم فرعون، وبعد الاعتراف بالخطأ، يمكن أن يكمل الحديث بذكر خطايا فرعون: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء:٢٢].كما قال ربنا في الآية السابقة: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

٦- هل الرد على المخالفين أسلوبٌ في الإصلاح؟ بعضهم انهمك في الردود، حتى أصبحت أخطاء الآخرين هي التي تقود مشروعه، وبسبب ذلك وغيره؛ التزم بعضهم عدم الرد على المخالفين، والصواب أن بين الانهماك في الردود، والإعراض التام عن الردود خيارات كثيرة، والحكمة هي التي تؤيد الرد تارة، والإعراض تارة أخرى؛ مراعاة لأمور تختلف باختلاف الأحوال، والقرآن كانت له رؤية واضحة يبنيها في قلوب وعقول أتباعه، ومع ذلك، لا يترك الرد على الشبهات المناوئة، والأديان المنحرفة، وفي آية لها دلالة عجيبة يقول الله: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل ﴾ [البقرة:١٤٢]، فحكم عليهم بالسفه، ومع هذا رد على مقالتهم، وقال الملأ للمصلح الكبير -نوح عليه السلام-: ﴿ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [هود: ٣٢].

إن الرد في صورته الحكيمة: وقتاً، وقدراً، وأسلوباً فرصةٌ لبيان الحق والدعوة إليه، وتثبيتٌ للمخلصين من الأتباع ممن يقصر علمهم وحجتهم عن بعض الشبه، وبالتأكيد، فهناك تشغيبٌ لا ينتمي للحجج والشبه، وهناك سخرية واستهزاء لا ينبغي للمصلح أن ينزل إليها، فبضاعة أهل الحق والإصلاح: الحجج والآيات البينة، وبضاعة أهل الباطل: الاستهزاء والسخرية: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ [الصافات: ١٢ - ١٤].



الوقفة الرابعة

اجتماع الكلمة

ضرورة الخلاف وضرر التنازع

الخلاف شيء.. والتنازع شيء آخر:

الخلاف قدرٌ ربانيٌّ لا يمكن معاندته، وقد خلقه الله لحكمةٍ وفائدة، ولن تجد شيئاً مفطورًا عليه الخلق إلا وله فائدة ضرورية تعود على الحياةِ واستمرارها بالخير والنماء. الخلافُ شيء والتنازعُ شيءٌ آخر، التنازع هو الصورة الرديئة للخلاف، واستئصالُ الخلاف بكل صوره غير مقدورٍ عليه كوناً، وغير مطلوبٍ شرعاً، والمنافسةُ الشريفة هي من الصور الجميلة في استثمار طاقة الخلاف المودَعة في النفس البشرية، المنافسة الشريفة هي وقود النجاح: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾.

اعترفت الشريعة بطاقة المنافسة، واختارت القيم والمقاصد التي ينبغي أن يتنافس عليها العباد. إن الذي أنزل الشريعة هو الذي خلق الخلق سبحانه، ولا يمكن أن تأتي الشريعة لمعاندة الفِطرة والخِلقة، بل لتهذيبها وتزكيتها: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾.

وعندما جاء رسول الله ﷺ إلى المدينة آخى بينهم، لكنه لم يُلغِ ما بينهم من تنوع واختلاف، فبقي الأوس والخزرج في تمايزٍ مَردُّه إلى النسب، وبقي المهاجرون والأنصار في تمايزٍ مَردُّه إلى العمل، وكانت هذه الأسماء تزيد

من طاقتهم ومنافستهم في اتجاه الحق ورفعة الدين، ورغم ما يحدث بسببها في بعض الأحايين من عصبية جاهلية إلا أنها كانت تقاوَم بالتهذيب الذي يُبقي فائدة التنوع دون ضرره، ولم يُستأصل التنوع والاختلاف بالكلية، حتى لا يبقى نسبٌ أو عملٌ يمايز بينهم، وخير الهدي هدي محمد ﷺ.

الاختلاف ليس شرا محضا، ولم يخلقه الله ويقدّره إلا لحكمة بالغة، فالخلاف الرشيد يأخذ المجتمع نحو الأفضل، ويستخرج من النفوس أثمنَ ما فيها من طاقة وإبداع، والخلاف لمن أحسن إدارته ثراءٌ وتنوع، وحراكٌ وتقدم، أما من يفشل في إدارته فهو تنازعٌ يمزق الوحدة، ويعرقل المسيرة.

إن الخلاف داخل المجتمع ضرورة كونية وشرعية، وما لم يتم الاعتراف به مع تنظيمه وإدارته؛ فإنه يتحول إلى حالة نزاع وشقاقٍ وفُرقة، والمجتمعات لا تنهض ولا تتقدم دون خلافٍ وتنوع ومنافسة. ستلاحظ دائما أن إلغاء حق الاختلاف والتنوع لا يورث المجتمع (اجتماعًا وقوة) بل (تنازعًا وفتنة)، ولو خلت ديارنا من الاختلاف لكان من العقل والحكمة أن نستدعي بعض الخلاف؛ فالتقدم والتنمية والتطور لا يظفر بها مجتمع التنازع والفشل، كما أنه لا يظفر بها مجتمع الركود والتشابه.

الأهم في الخلاف إذن هو الاعتراف به، وإدارته بطريقة صحيحة تفرز بين الخلاف المقبول وغير المقبول، واتخاذ القوانين اللازمة في تنظيم هذا الخلاف وتحويله إلى طاقة جديدة للنجاح.

ليتنا نتوقف عن أحلامنا بترك الخلاف، لأنها أضغاث أحلام، تخالف القدر الكوني في هذه الحياة الدنيا، كما أنها لو تحققت -ولن تتحقق- تضر بقدر ما تنفع، وكل جهود يبذلها المصلحون في معاندة الخلاف ومكافحته هي تضييع للوقت الثمين الذي يجب أن يُبذَل في الاعتراف بالخلاف والعمل الجادّ على حسن إدارته.

البشر.. كل البشر، يجري في عروقهم الخلاف كما تجري الدماء، مسلمون أو غيرُ مسلمين، إنما يتفاوت الناس في حسن إدارتهم لهذا الخلاف، حتى يصبح الخلاف لقومٍ سُقْيا رحمة.. ولآخرين سُقْيا عذاب.

للخلاف قوانين تديره:

هناك أمور ستبقى محل نزاعٍ ومغالبة مهما كان القرار مِهَنياً وموضوعيا؛ لزيادة شهوتها وتَشَوُّف الناس إليها؛ ولذلك يجب فيها من الاحتياط والضبط والإدارة ما لا يجب في غيرها، فشهوةُ الرئاسة راسخة في النفوس، وربما بُذِلت فيها المهج والأموال، وما لم تكن هذه المنافسات والخلافات وفق قوانين صارمة للغاية تدير هذا الخلاف، فستحلّ الفتنة ويتمزق الناس وينتشر الهرج والمرج، وفي

القرآن ما يكشف حجم المشكلة، فقد اختار الله طالوت للمُلْك، وهو اختيارٌ رباني لقومٍ طلبوا من نبيهم ذلك: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾ [البقرة:٢٤٦]، فلما اختار الله لهم ملِكا اعترضوا ويا للعجب!

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

إنه اختيارٌ رباني، جاء بطلبهم وانتظارهم، واختار لهم من هو ظاهر التميز والتفوق؛ بسط الله له في العلم والجسم، ثم بعد ذلك

يعترضون ! لاسبيل إذن لعدم الاعتراض، وما لم تكن هناك قوانين في غاية الصرامة تدير الخلاف في مثل هذه الموضوعات، فستبقى محل نزاعٍ وفِتنة، وإضعافٍ للأمة.

التنوّع ضرورة:

بعض الخلافات بين الدعاة والمصلحين تشبه هذا الخلاف -وفي كلٍ خير: نبي الله سليمان يقول: ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ﴾ [ص: ٣٥]، بينما محمد ﷺ يختار لنفسه أن يكون عبدًا رسولًا.

ليس بالضرورة أن نكون نُسخًا متشابهة، وطرائق متطابقة، وليس بالضرورة أن يكون أحدهما مصيباً والآخر مخطئًا، حتى الفاضل والمفضول قد يصبح المفضول فاضلًا في هذا الزمان أو ذاك المكان أو لذلك الشخص. وقد سئل رسول الله مرارًا أي العمل أحب إلى الله، فتنوعت الأجوبة ولم تأتِ بعملٍ واحد.

وربما قامت كلٌّ طائفة بفرض كفاية وينفع الله بها نفعًا كبيرًا.

وكما يتقاسم الناس حاجات الدنيا فيقوم بعضهم بالطب أو الهندسة أو الزراعة أو البناء أو التعليم وتقوم دنياهم على هذا التنوع الضروري، فإن قيام الدين وقوته وانتشاره لابد له من مثل هذا التنوع.

الأجر والأجران:

وبعض الخلافات بين الدعاة والمصلحين تشبه هذا الخلاف: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء: ٧٨-٧٩].

يقع الاجتهاد في الحكم والإصلاح، وربما اجتهد أحدهم فأخطأ، ولا يُخرجه خطؤه عن فضل العلم وأجر الاجتهاد: ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا ﴾.

والمجتهد المخطئ ليس معذورًا فحسب، بل مأجور على اجتهاده، ومهما بلغ العاملون للإسلام من العلم والفضل وتحري الصواب، فإنهم مخطئون لا محالة، وبعضهم يكون أقرب للصواب من بعض، فهذان نبيّان كريمان يبتغيان العدل والإصلاح، كان أحدهما أصوب من الآخر: ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾.

كذلك موسى وهارون اختلفا في التعامل مع حادثة العجل، فبينما بقي معهم هارون، كان موسى يرى مفارقتهم واتباعه: ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ [طه: ٩٢-٩٣].

الاختلاف ليس شرًا محضًا، إذا كان عن اجتهاد شرعي، وقبولُ الاجتهاد لا يعني التسوية بين الآراء، حتى لا تضيع الطاقة الحافزة للبحث عن الصواب، وقد جعل رسول الله ﷺ لأمته طاقةً حافزة للبحث عن الصواب بفتحه لباب الاجتهاد، وعذر المخطئ بعد اجتهاد، وإكرامه بالأجر والمثوبة؛ حتى لا يتهيب الناس عن المحاولة والبحث، ثم تمَّم هذه الطاقه وكمَّلها بتمييز المصيب بمزيد من الأجر والخير، حتى لا يسترخي بحثُه، ولا يضعف اجتهاده، وكم في هذا الاجتهاد من خير يعلمه الله، ففي حركة الاجتهاد حفظٌ للشريعة، حيث يفيئون إليها كلما اختلفوا، وتمييزٌ بين صحيحها ومنحولها حين يتفاوتون في الرأي ويتشاحون في الحجة، وبهذا الاجتهاد يُقبِل الأذكياء على علوم الشريعة، ويظهر العلماء الربانيون القائمون بأمر الله وشرعه.

هو سماكم المسلمين من قبل:

لا يوجد ما يمنع من الأسماء الخاصة: (سلفية، أو شافعية ونحو ذلك)، ولكن لا ينبغي أن تصل لمزاحمة هذا الاسم الشريف: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[الحج: ٧٨]، فعلى هذا الاسم تنعقد الموالاة والنصرة والنصيحة، أما الأسماء الأخرى فهي للتعارف والمنافسة على عمل الخير، وبهذين الأمرين يبقى للأمة اجتماعها وهيبتها باسم الإسلام، ويبقى لها حراكها وحيوتها بالتنوع والمنافسة.

ضرر التنازع:

التنازع إرادةٌ شيطانية: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ ﴾ [المائدة: ٩١].

إن الشيطان ينشر بضاعته داخل المجتمع المسلم بكل طريق، وربما دسَّ بضاعته في حقائب بعض المتديّنين، فظلوا ينشرون التنازع باسم الشريعة وهم لا يشعرون.

دينُ الله لا يزيد المجتمع المسلم إلا اجتماعًا وأُلفة، هذا صراط الله المستقيم، صراط الذي أنعم الله عليهم، أما المغضوب عليهم، فـ ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحشر: ١٤].

ومن هذه الأمة من يشابههم ويتتبّعهم، كما جاء في الحديث.

إن التنازع بين المسلمين يورث غضب الله، ويورث الضعف والفشل، وسنةُ الله لا تتخلف، وقد أصاب المسلمين ما أصابهم يوم أحد جرَّاء التنازع، وهم أكرم الخلق على الله: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ

﴿ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وأهم أسباب التنازع: الإعراض عن دين الله كما أنزله الله، قال الله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٢-٢٣].

فالتولي والإعراض عن ما جاء به محمد ﷺ هو سبب الإفساد في الأرض، وسفك الدماء، وقطيعة الأرحام.

ومن الإعراض عن دين الله: الحسد، وسوء الظن، والغيبة، والنميمة وغير ذلك.

وبعض المفسرين جعل التولي هنا عن أمر الجهاد في سبيل الله، لسياق الآيات قبلها، ولاشك أنه من الإعراض والتولي عن دين الله، وفي هذا المعنى فائدة نفيسة، فإن من قصَّر في مناوأة الأعداء الحقيقيين انصرفت عداوته لإخوانه المسلمين، فتفرقت الكلمة، وتقطعت الأرحام.

إن في النفس الإنسانية مشاعر للعداوة والبغضاء لا يمكن أن تكبت، وما لم يصرفها الإنسان لمن يستحقها، فإنها تتسرب داخل المجتمع المسلم؛ فتفسد لُحمته، وتفرق جَمعته، فالإسراف في معاني الحب والتسامح لا يلغي الطبيعة البشرية، بل يجعلها تتسرب دون رقيب، وقد قيل: ما رأيتُ سَرَفًا إلا ومعه حقٌّ مضيَّع.

سبب الاجتماع:

من عرف أسباب التنازع عرف أسباب الاجتماع، فلا حاجة لإعادة الكلام وتكراره، ولكن يُضاف هنا سبب مهم للاجتماع، وهو سببٌ محايد يأخذه المسلم والكافر فيزيدهم اجتماعا، والاجتماع من زيادة العقل، والتنازع لقوم لا يعقلون.

إن إدارة الخلاف علم خاص، يتطور مع الأيام، ومن أهم أدواته: (الشورى)، والشورى يحبها الله ورسوله حتى لو كان الموضوع (فطامًا عن رضاعة): ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وقد أثنى الله على المؤمنين بأن أمرَهم شورى، كما قال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى: ٣٨].

والشورى أمر الله سبحانه، وخير الأمرِ أمره، أمَرَ به نبيه الذي يوحى إليه، ولو استغنى أحد عن عبادة الشورى لاستغنى صاحبُ الوحي ﷺ.

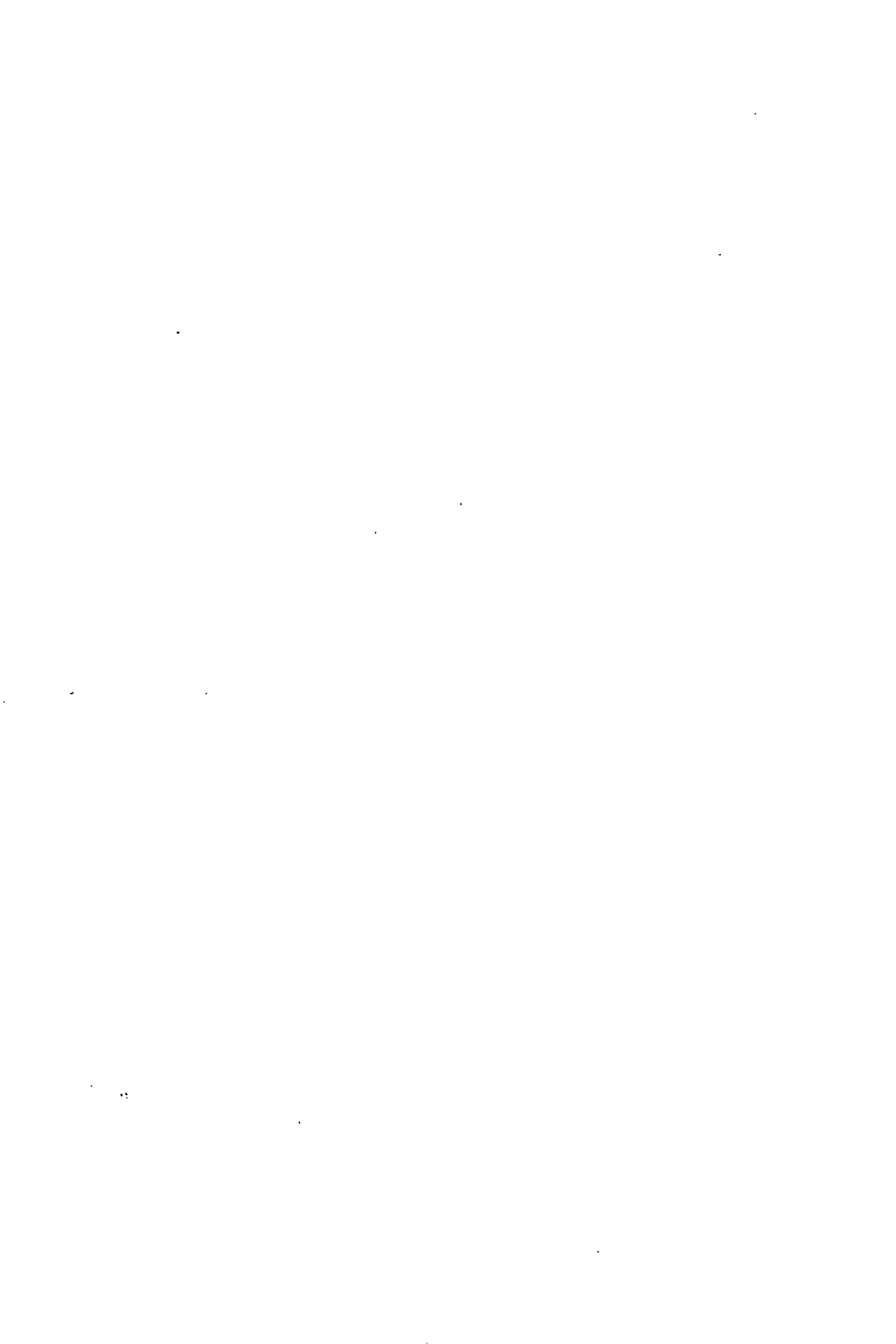
قال الله لنبيه: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ

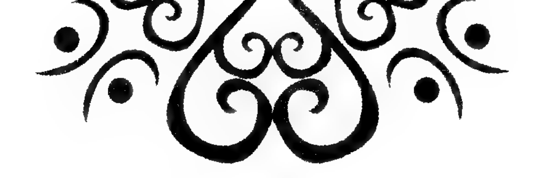
﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾[آل عمران: ١٥٩]، وانظر كيف جاء الأمر بالشورى في سياق اجتماعهم وعدم انفضاضهم، ولا يجتمع القلوبُ على أحد دون الشورى التي هي أهم أدوات إدارة الخلاف.

إن في الشورى خيرًا وبركة، وما استعملها أهل خير إلا زادت برَّهم وخيرهم، ولا استعملها أهل شر إلا خففت من شرهم، وباعدت بينهم وبين أسباب الهلكة، وفي قصة يوسف كادوا أن يقتلوه، لولا (الشورى): ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ [يوسف: ١٠].

إن الشورى معنى عام، وهي تتطور في أدواتها وطريقتها باختلاف الزمان والمكان والإمكانات.

والشرع والعقل يشهدان للشورى ويدعوان إليها، وياللحسرة.. حين تنهض بالشورى أمم كافرة، فيجتمع شملها، ويلتم شعثها، وأمة محمد ﷺ في بُعْدٍ عن الشورى، غارقةٌ في بؤسها وتنازعها ومغالباتها.





الوقفة الخامسة

النقد

نعمة الندم:

(الندم على الخطأ) يشبه أَلَم المرض، هو مؤذٍ ومزعج، غير أنه خُلق لحكمة ربانية، تعود على حياة الإنسان بالنفع والفائدة؛ فألم المرض يوقظ صاحبه وينبهه على مرضٍ يحتاج للدواء، والندم على الخطأ يساعد صاحبه على الانتهاء. يقول الله تعالى: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمًا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]، وكأن هذا الندم الذي يلحق المخطئ تحذير كافٍ من الوقوع في الخطأ.

والنقد يبين الأخطاء فيجلب معه الندم، ولذلك؛ يكره كثير من الناس هذا النقد، فكأن النقد يوقظ الندم من جديد، هذا في حال صحة النقد، فكيف إذا كان النقد بغيا وزورًا؟!.

الانزعاج النفسي من النقد أمر طبيعي، ولولا هذا الانزعاج لاستوى في نفس الإنسان الصواب والخطأ، ولم يحرص ويجتهد في تجويد العمل وإتقانه.

وللتعامل الجيد مع النقد وما يرتبط به من (نعمة الندم)؛ ينبغي أن يسمع الإنسان النقدَ بأُذُن عقله لا قلبه، فأُذُن العقل تفيد الخبرة، وأُذن القلب تُضعف الهمة، وينبغي أن تنظر للنقد على أنه فرصة لتحسين المستقبل،

وليس حكما على الماضي، وينبغي أن يعتدل هذا الندم؛ فإن الخوف من الخطأ إذا زاد، منع من العمل، فينفع قليل الخوف، ويضرّ كثيره، والقصدَ القصدَ تبلغوا!

إن البيئة التي تبالغ في الندم على الخطأ والخوف منه لا تصنع المبدعين، وتعاقب العاملين، كما أن البيئة التي تستهين بالخطأ ولا تندم عليه تفقد قدرتها على الإتقان والتطوير.

النقد والتصحيح الذاتي:

العاقل يستفيد من النقد أيًّا كان مصدره، وأيًّا كانت نيّة صاحبه، حتى الأعداء لِنقدهم نفعٌ وفائدة:

عِداتي لهم فضلٌ عليَّ ومِنَّةٌ   فلا أبعد الرحمن عني الأعاديا
همُ بحثوا عن زلّتي فاجتنبتها   وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

ولأن النقد والتصحيح ضرورة؛ فلا ينبغي أن يكون دورنا معه القبول والاستفادة فحسب، بل نبحث بأنفسنا عن أمر يستحق التدارك، وخطأ ينتظر التصحيح، ويجب أن يكون هناك حركة ذاتية

في النقد والتصحيح، وإلا فإننا سنحافظ على أخطائنا كما نحافظ على مزايانا، وستتحول الأخطاء مع الوقت إلى جزء من المنهج يُنكَر على من يفارقه ويخالفه. التطوير والمنافسة للأمم الأخرى لن تتم دون حركة النقد والتصحيح الذاتي.

وفي الآيات الكريمة التي نزلت بعد غزوة أحد مدرسة قرآنية في النقد والتصحيح، وتلك التجربة كانت مع الصفوة المختارة من خلق الله، محمد ﷺ وأصحابه ﷺ.

تستحق هذه الآيات مقالات تستنطق منهج النقد فيها، وطريقته وأسلوبه، ولا مانع هنا من أن نذْكر أنّ النقد والتصحيح الذاتي على أهميته وضرورته، إلا أنه قابل للغلوّ الذي يضر بالواجبات الأخرى، فأهمية هذا الواجب لا تعني أن ننسى الواجبات الأخرى التي تتكامل معه، مثل الشكر والتشجيع على المزايا.

النقد والتصحيح (دواء)، والشكر والتشجيع (غذاء).. يموت جوعًا مهما أكرمته بأدويتك !.

وأهمية النقد والتصحيح لا تعني أن يقضي الإنسان عمره برِفقة العيوب والأخطاء، بحجة النقد والتصحيح.

التبرير والمكابرة:

للنفس الإنسانية قدرة على تبرير الخطأ، والالتفاف على النقد الصحيح؛ حتى يُرضي ضميره، وينجو من وخز الندم، وهنا مشكلة حقيقية، حين يجعل الإنسان بينه وبين النقد حجابًا نفسيًا يمنعه من مكاشفة نفسه، ومعرفة أخطائه، هذا الحجاب يكون بالتبرير تارة، وباتهام الناقد تارة أخرى، حتى يصل به الحال إلى اعتبار كلِّ نقد (شبهةً) تحتاج إلى ردّ، وكل (ناقد) مناوئًا يحتاج إلى تحذير ! يحدث هذا مع الشخص نفسه، أو مع الجماعة، أو الحزب، أو المذهب الديني.

علينا أن نتذكر أن سياسة التبرير مضللة، ويمكن أن يبرر الإنسان كل خطأ، ما لم يصارح نفسه، ويواجه الحقيقة.

إن الخطيئة التي اقترفها إبليس، وحلّت عليه اللعنة بسببها عمل إبليس على تبريرها: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢]، فهو لم يسجد، وعصى ربه، ثم لم يعترف بخطيئته ومعصيته، بل ذهب يفلسفها ويبرر لها، بخلاف آدم -عليه السلام-، الذي واجه خطأه بالاعتراف، وصحح زلّته بالتوبة:

﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٢-٢٣].

تبرير الأخطاء، واتهام الناقد، والهروب من مكاشفة النفس بأخطائها، والجرأة على تصحيحها هي الأخرى خطأ لن تعترف به النفس التي أدمنت تبرير الخطأ، وعدم الاعتراف به، وهذا ما يجعل المشكلة عصية على المعالجة.

متى كان آخر خطأ اعترفت به دون تبريرٍ للخطأ أو اتهامٍ للناقد؟ هذا السؤال يساعد على اكتشاف المشكلة ومعرفة حجمها!

المدمن على النقد:

كما أن النقد يبعث ألمًا وندمًا للمنقود، فإن فيه لذة ومتعة للناقد، تصل هذه المتعة إلى إدمانٍ يستوعب غالب وقته وجهده؛ ففيها قدر من الاستعلاء والأستاذية، وفيها تهوين لما فاته من شرف العمل، وفيها مخاطبة لأهواء النفس التي تحمله هنا على إدمان النقد، وتحمله هناك على الغيبة أو السخرية.

الغيبة هي كشف للعيوب، ولكن على سبيل الهوى والفساد، لا النصيحة والإصلاح، ومن أسرف في النقد شقَّ عليه العمل، ولا يستطيع العامل أن يدمن على النقد؛ لأنه مشغول بعمله، إنما يدمنه البطّالون، وأصحاب الألسنة الحداد، هم الأجبن وقت الحاجة للبأس والقتال، وهم الأبخل وقت الحاجة للإنفاق: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ [الأحزاب: ١٩].

الإدمان على النقد قد يقع فيه بعض الصالحين أيضًا، فبينما يعمل غيرهم في مشاريع الإفساد، يكتفي هؤلاء بإدمان النقد، وهذا الإدمان يوهمهم أنهم في مشروع نافع، فالتحذير والنقد ليس مشروعًا حقيقيا يزاحم مشاريع الإفساد، أفضل نقد للفساد أن تقيم مشاريعك المنافسة في الصلاح، ويبقى التحذير عملًا مُكمِّلًا لا يسوغ الاكتفاء به.

بثت بعض القنوات مسلسلًا تليفزيونًا فيه مخالفات شرعية كثيرة، وله أهداف في إفساد المجتمع، وفي كل عام، كان عمل الصالحين والغيورين الانهماك في التحذير منه، ونشر الفتاوى المحرمة له، وبعد سنوات طويلة، ظلّ المسلسل على حاله، والتحذير على حاله، دون أن ننجح في بناء مشاريعنا وخبراتنا المزاحمة والمدافعة لهذا الفساد.

لقد كان الواجب عدم الاكتفاء بالتحذير، بل الشروع في الإنفاق من المال، والوقت، والجهد، والخبرة، في بناء مشروع آخر، ينافسه

على مخاطبة المجتمع، ويتضمن القيم والمعاني الجميلة التي يحتاجها المجتمع المسلم.

النقد النافع بناءٌ وإيجابيةٌ وعملٌ، وليس تحذيرًا فحسب.

النقد غير الموضوعي:

لا علاقة لنقده بالموضوع، يكفي سببًا للنقد والرفض أنه صادرٌ من ذلك الشخص، أو تلك الجهة، هذا النقد يصعب معالجته، أوالاستفادة منه في تطوير العمل، هو نقدٌ جائر، نقدٌ دائم، سواء أصبت أم أخطأت، والعاقل ينتفع بالنقد الصحي، في تطوير العمل وتدارك الخطأ، وينتفع بالنقد الجائر في تحفيز الهمة والتحدي والإصرار.

لقد كان المسلمون الأوائل يتعرضون لنقدٍ غير موضوعي، يستهدف أشخاصهم وذواتهم، دون النظر للموضوع والعمل: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [الأحقاف:١١].لقد نقدوا الدين الذي ذهب إليه غيرهم،

دون النظر في أدلته وبراهينه، يكفي في نقده أنهم سبقوا إليه، وكأن الحق، والخير، والهدى، مرتبط بذواتهم دون غيرهم !

يظهر هذا النقد غير الموضوعي حين تشاهد بعض الكتابات الناقدة لبعض المشاريع الدينية، فهو نقد يستهدف (الإلغاء)، وليس (الإصلاح)، ولكن من العقل والدين والحكمة أن نقبل الحق ولو كان عن طريقٍ لا يريد الحق، وأن نُصرّ على مواجهة هذا النقد الجائر غير الموضوعي، بمزيد من الثبات على الحق، وتطوير العمل وإتقانه.

اختبار النقد:

لا يترك الناس النقد مهما بلغ الشيء إتقانًا وإبداعًا، وحتى يتمايز النقد العملي العادل من النقد الظالم، يأتي سؤال ما البديل؟ ما الحل؟

أمام هذا السؤال، يسقط نقد البطَّالين الذين ينقدون لمجرد النقد، ويسقط نقد المناوئين الظالمين الذين ينقدون ظلما وعدوانًا، حتى الحسنة تتحول في أعينهم إلى سيئة:

إذا محاسني اللاتي أُدِلُّ بها كانت عيوباً فقل لي كيف أعتذر؟

والقرآن واجَهَ النقدَ الجائر بمثل هذا: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [القصص: ٤٩]. بمثل هذا، تسقط أشباه الحجج، ويتعرَّى النقد الظالم.

إنّ النقد يجب أن يكون عملًا بنّاء، وليس تعليقا عابرًا يسجل تحفظه ورفضه فحسب.

التفكير في البديل والحل ينفع الناقد والمنقود، ويحول النقد من حالة نفسية متحفظة على التجربة فحسب، إلى عمل فكري يساعد التجربة على تجاوز أخطائها، وتحسين أدائها.

في موقف لطيف مع أحد طلبة العلم، كان ينتقد مفتيا يظهر في برنامج الإفتاء، ثم استرسل في نقد غيره، حتى أتى على جميعهم وهو لا يشعر، فسألته: من تراه مناسبًا للإفتاء في هذا البرنامج؟ فذهب الحديث وجاء، دون أن يعثر على أحد ! مثل هذا النقد لا يساعد على تطوير العمل، ولا ينفع القائمين عليه.

لن يترك الناس النقد الجائر، ولن يتميز النقد العملي العادل من النقد السطحي والجائر، إلا بمثل هذا الاختبار: ما البديل؟ ما الحل؟



الوقفة السادسة

الحقوق

الحقوق والأخلاق فوق الخلاف:

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ ﴾ [لقمان: ١٥].

هذه الآية أصلٌ في علاقة الخلاف بالحقوق، وعلاقةِ الخلاف بالأخلاق. لا يوجد خلاف أعظم ولا أكبر من الشرك بالله تعالى، هو الذنب الأعظم، والظلم الأكبر، ثم يجمع مع هذا الشرك دعوةً إليه، وإلحاحًا ومجاهدة عليه.

لقد بلغ بذلك الذروة من الخلاف، وكل خلاف يتطامن أمام هذا الخلاف، ومع ذلك لا يسقط حق الوالدين في الصحبة بالمعروف! هذا هو دين الله الذي نفاخر به الناس! الذي لا يُسقط الحقوق من أجل الخلاف، ولا يترك الأخلاق من أجل الخلاف، بالغًا ما بلغ هذا الخلاف.

فإذا وجدت تديُّنًا ينتهك الحقوق، ويتجاوز الأخلاق باسم الغيرة على دين الله، فانطق بلسانك وقلبك: سبحانك هذا بهتانٌ عظيم.

هل هناك أشد غيظًا وحنقًا من رجل تقبض عليه في أرض المعركة،

قَطَع الفيافي والقفار من أجل قتل الرجال، وسبي النساء ؟! فإذا تمكنت منه، وشددت عليه الوثاق، وأصبح أسيرًا في يدك، كان الإحسان إليه -مع شركه- طريقًا إلى الجنة: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان: ٨]. قال قتادة: لقد أمر الله بالأُسراء أن يحسن إليهم، وإن أسراهم يومئذ لَأهل الشرك.

ومهما تذكرتَ أحبابك الذين قضوا نحبهم في تلك المعركة، والأطفال الذي تيتموا، والنساء الذين ترمّلوا، وشركَه بالله العظيم، وحربَه للمسلمين، فإن ذلك كله لا يبيح إسقاط الحقوق والأخلاق. ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

ليس علينا في الأمّيين سبيل:

الأمانة وحفظ الحقوق لا يُلغيها الخلاف، ولو كان خلافا في الدين، وقد كان بعض اليهود يستحلون الحقوق بحجة الخلاف في الدين، كما وصفهم الله في كتابه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٥].

إن الله لا يأذن بتضييع الأمانة، وانتهاك الحقوق، ومن نسب ذلك إلى الله فقد أعظم على الله الفرية. يستعصي الخطأ عن التصحيح حين يُنسب للشريعة كذبا وزورًا، وهذا سبيلٌ قديم يحتاج إلى يقظة ومحاذرة: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

وفكرة ﴿لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾ وإن كانت منسوبة لبعض اليهود، إلا أن بعض المسلمين يقع فيها أيضا؛ مصداقًا لقول النبي ﷺ: «لتَتَّبعنَّ سَنَنَ الَّذين من قبلِكم. شِبرًا بشبرٍ، وذراعًا بذراعٍ. حتَّى لو دَخلوا في جُحرِ ضبٍّ لاتَّبعتموهم قُلنا: يا رسولَ اللهِ ! اليهودُ والنَّصارَى؟ قال: فمَن؟» متفق عليه. وهذا يوجب الحذر التام من دخول هذه الفكرة إلى الفروع الفقهية، وضرورة المراجعة المستمرة للتراث والفتاوى؛ فإنها ليست قولا مرجوحا، بل كذب على الله.

لقد كان أعلام الأمة في الصدر الأول، على يقظة تامة من استحلال بعض الحقوق بحجة الخلاف ولو كان في أصل الدين، ومن ذلك ما رواه ابن جرير عن حَبْر الأمة وترجمان القرآن، عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، أن رجلا سأله فقال: إنا نصيب في الغزْو من أموال أهل الذمة الدجاجةَ والشاة، فقال ابن عباس: فتقولون ماذا؟ قال نقول: ليس علينا بذلك بأس! قال: هذا كما قال أهل الكتاب: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾! إنهم إذا أدّوا

الجزية لم تحلّ لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم.

وفي سورة الممتحنة نص القرآن على «حكم الله»، وفيه إعادة الحق لبعض الكفار: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِۖ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [الممتحنة: ١٠].

أحطتُ بما لم تحط به:

في مملكة سليمان -عليه السلام- كانت الحقوق محفوظة بشرعة الله وأمره، ولم يُؤتَ أحدٌ من ملوك الأرض ما أوتي سليمان من الملك والقوة: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٣٥ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ۝٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴾ [ص: ٤٠]

وذات يوم توعّد سليمانُ الهدهد وهو في غاية قوته وملكه، بوعيد شديد تنخلع له القلوب: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢٠- ٢١].

وفي مثل هذا الموقف، تُختبر العدالة وحفظ الحقوق -في حال التهديد والوعيد-، مِن أقوى ملوك الأرض، لطيرٍ ضعيفٍ مُستضعَف!

إن ذلك كله لم يَنتقص من حقوق الهدهد شيئا في مملكة النبوة، وجاء الهدهد في كامل حقوقه يقول للملِك المهيب: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢].

﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾!

هل نريد في حفظ الحقوق مشهدًا أروع من هذا المشهد ؟!

كم هي المسافة بين هدهد ضعيف وأقوى ملوك الأرض ؟!

وكيف استطاع الهدهد في حال التهديد والوعيد أن يعبر عن موقفه بكل وضوح ؟!

وكم هي الروعة والدهشة في مملكة النبوة حين حَفظت حقوق الهدهد

في الدفاع، والتعبير، ثم حفظت حقوق أولئك الذين اتهمهم الهدهد بالشرك ولم تبادرهم بعقوبة حتى تتثبت؟!

إن المسلم اليوم يتمنى أن يحصل على بعض حقوق الهدهد في مملكة سليمان عليه السلام !

لقد أضاع العالمُ الإسلامي حقوق الإنسان، وحقوق الحيوان، واستبد منطق القوة والغلبة، حتى غدت الحقوق بضاعةً غريبة ! وما هي بغريبة، بل هي شريعة الله التي أنزلها في كتابه، وامتثلها أنبياؤه، ولكن أكثرهم لا يفقهون!





الوقفة السابعة

العدل

العدل في الحكم والإجراءات:

بقراءة النصوص المستفيضة في الأمر بالعدل، وتحريم الظلم، والوقوف على تفاصيل العدل في أحكام الشريعة، وآثاره الحسنة في الحياة، وشؤم الظلم وآفاته على الناس، بعد ذلك كله تفهم كلمة شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: «جماع الحسنات العدل، وجماع السيئات الظلم، وهذا أصلٌ جامعٌ عظيم».

وفي الحديث القدسي الصحيح ما يُزلزل القلب في تعظيم الظلم والتحذير منه: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا؛ فلا تظالموا». من يجرؤ بعد ذلك -وهو في عقله ورشده- أن يظلم ؟! بعدما حرم الله الظلم على نفسه سبحانه، وحرمه على خلقه. إنّ هذا الأسلوب في تحريم الظلم يكشف حجم التحريم ورسوخه.

ومع علمِه التام سبحانه بمن يستحق النعيم ومن يستحق الجحيم، إلا أنه سبحانه من تمام عدله أظهر دلائل العدل وأبانها، فاستنسخ الأعمال، واستشهد الشهود، ونصب الموازين، ولم يدخل إلى النار إلا من استحقها، وأظهر استحقاقه لها بالعدل ودلائله.قال الله تعالى: ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ

عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية:٢٩]، وقال تعالى: ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣-١٤]، وقال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٩].

واستشهد عليهم سبحانه شهودًا من أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت: ٢٠].

ونصب الموازين القسط، كما قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

وهذا كله يرسخ أمرين مهمين:

١- وجوب العدل وتحريم الظلم.

٢- أنّ العدل وحده لا يكفي حتى تَظهرَ دلائله وتشهر بيناته، ويستمسك بإجراءاته وقوانينه، وأن الذي يحكم بالعدل مقصرٌ حتى يلتزم في حكمه هذا طريقَ العدل، وإجراءاته، وقوانيه.

وما أحوج الخلق للعدل، وما أحوج العدل للالتزام بطريقه ودلائله وإجراءاته، ولا يكتمل العدل إلا بالإجابة الصحيحة على سؤالين:

- كيف حكمت؟ وهنا تظهر إجراءات العدل المحايدة والمستقرة والمعلنة.

- ماذا حكمت؟ وهنا يظهر الحكم العادل بعد الالتزام بطريق العدل وإجراءاته.

ما خَطبُك يا سامريّ ؟

السؤال والتثبت قبل الحكم والعقوبة -مهما كان الجرم-، هذا قانون العدل الذي لا يتخلف. لقد سأل الله إبليس حين لم يسجد -وهو أعلم به سبحانه- قبل أن يعاقبه بما يستحقه من اللعن والطرد: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾ [ص: ٧٥].

وموسى عليه السلام فُجِع بفتنة قومه وعبادتهم للعجل، وغضب من ذلك غضبا شديدا، ومع ذلك سأل السامري صاحب الفتنة: ﴿ قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴾ [طه: ٩٥].

ورسول الله ﷺ هذا شأنه ودأبه، ومن ذلك قصة حاطب بن أبي بلتعة الشهيرة، وفيها وقع حدث عظيم، وفي ظرفٍ بَلَغَ الغاية في الحساسية والخطورة، مما يجعل العادل يذهل عن السؤال قبل أن يحكم، ورغم ذلك حافظ رسول الله ﷺ على هذا القانون العادل، وسأل قبل أن يحكم بشيء: «يَا حَاطِبُ، مَا حَمَلكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟».

العاقل خصيمُ نفسه:

الإنسان دون دِين وعقل ظلومٌ جهول، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم:٣٤]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: «والإنسان خُلقَ ظلومًا جهولًا، فالأصل فيه عدم العلم وميله إلى ما يهواه من الشر، فيحتاج دائما إلى علمٍ مفصل يزول به جهله، وعدلٍ في محبته وبغضه ورضاه وغضبه وفعله وتركه وإعطائه ومنعه وأكله وشربه ونومه ويقظته، فكل ما يقوله ويعمله يحتاج فيه إلى علم ينافي جهله، وعدل ينافي ظلمه، فإن لم يمنَّ الله عليه بالعلم المفصل والعدل المفصل، كان فيه من الجهل والظلم ما يخرج به عن الصراط المستقيم».

أما الموفق، فإنه خصيم نفسه، يقضي على نفسه بالعدل قبل أن يخاصمه أحد، ومن ذلك ما وقع بين موسى والخضر، فقد قال موسى من تلقاء نفسه: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف:٧٦]، وهذا من اقتفاء العدل، ومخاصمة النفس، دون أن يحتاج الصاحب أو الشريك أو المخالف إلى المخاصمة أو المقاضاة، وتلك منزلة الكبار، الذين خرجوا من سلطة الهوى وشهوة الظلم إلى مقام العدل والإنصاف.

ومن رحمة الله: وجودُ أهل العدل في الناس، وإلا تقوّضت الحياة وفسد نظامها: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٨١]. والأنبياء بعثوا لإقامة العدل، قال تعالى: ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾[الشورى: ١٥]. وولاة الأمر مأمورون بأمر الله تعالى بالعدل في الرعية، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[النساء: ٥٨].

قال ابن جرير -رحمه الله-: «إن الله يأمركم يا معشر ولاة أمور المسلمين... ويأمركم إذا حكمتم بين رعيتكم أن تحكموا بينهم بالعدل والإنصاف، وذلك حكمُ الله الذي أنـزله في كتابه، وبيّنه على لسان رسوله، لا تعدُوا ذلك فتجورُوا عليهم».

وأخطر شيء يصيب العباد والبلاد، وينشر الفساد، أن يفسد القضاء؛ فهو المعوَّل عليه -بعد الله- في فصل النزاعات، وحسم الخلافات، فإذا فقد الناس الثقةَ في القضاء، وأصبح القضاء منحازًا لطرفٍ دون طرف -ولو كانت السلطة-، فإن الناس -حينئذ -سيحتكمون للقوة والغلبة، فإن استطاعوا حينها فالفتنة والفوضى، وإن لم يستطيعوا تراكمت ظِلامات الناس في نفوسهم، وضاقت صدورهم بالغبن والقهر، حتى تحين ساعةُ ضعفٍ، فيتحكم الانتقام والثأر، وتلك مصيبة على البلاد لا تقل شؤمًا عن الظلم الأول. إن جهاز القضاء هو السدُّ الأخير بين الناس والفتنة، فإذا عبثت الفئران في هذا السد، وغفل الناس عنها، تهاوى السد الأخير في لحظةٍ من الزمان وبغتة.



ظلموا أنفسهم:

لو يعلم الظالم ما ينتظره من النكال والوبال، لعلم أنه إنما يظلم (نفسه) قبل أن يظلم غيره!

قال الله تعالى: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم:٤٥]، وقال تعالى: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: ٥٢]، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة.

وأعظم الظلم: الشرك بالله، نعوذ بالله من الظلم كله، دقيقه وجله!

ومن العَجَب أن نصوم يوم عاشوراء في كل عام، ونفطن لعبادة الصوم، ونغفل عن شؤم الظلم، وربما وجدتَ الرجل يصوم يوم عاشوراء وهو مقيم على ظلمه!

وما أصاب فرعونَ البوارُ والدمار إلا بسبب ظلمه وجوره: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٤].

ما حظّ مساجدنا ومدارسنا من التحذير من الظلم ؟! الظلم للعامل، والخادمة، والموظف، والابن، واليتيم، والمسكين، وللأسف الشديد أنك تجد التحذير من قضايا اجتهادية تملأ اللوحات الدعوية، ثم تبحث عن التحذير من الظلم فلا تجد ما يكفي ويشفي، وربما وجدت بعضنا يتورع عن الإخلال بمظهره في الثوب واللحية -وهذا خير-، ثم لا يأبه بظلم العامل أو الموظف. «والظلم ظلمات يوم القيامة» كما قال ﷺ.

وخير ما يورِّثه الوالد لولده سيرةُ العدل، والأمر به: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء: ٩]، وللأب الصالح حفظٌ ورعاية تلحق ذريته على ضعفهم، وتحفظ حقوقهم من بعده: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف:٨٢]. قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا ﴾ قال: حفظا بصلاح أبيهما، وما ذكر منهما صلاح.

لِلمظلوم سُلطانٌ ربّاني:

العاقبةُ للمظلوم، ودعوة المظلوم لا ترد، وليس بينها وبين الله حجاب، ونصرة المظلوم أمرٌ شرعي، وقدرٌ كوني: ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ [الإسراء:٣٣]، ففي شرع الله جعل الله لولي المقتول سلطانًا على القاتل، فإما القتل أو الدية أو العفو، وأخبر سبحانه بنصرة المظلوم، وهذه النصرة تكون في الوقت والطريقة التي يقدرها الحكيم القدير.

ولاشك أن على المظلوم أن يعمل الأسباب في رفع المظلمة، وألا يتّكل على النصر المحض من رب العالمين؛ فقد جرت العادة أن النصر من رب العالمين يحتاج لبذل السبب حسب الوسع والطاقة، حتى المعجزات الربانية لأنبيائه ورسله فيها شيء من العمل، فموسى - عليه السلام- نصره ربه على القوم الظالمين، لكنه عمل بالأسباب إلى أن ضرب بعصاه البحر، وقد كان الله قادرًا على أن يفلق البحر دون أن يضربه بعصاه. ومريم -عليها السلام- في حال مخاضها وآلامها جاءها الأمر: ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [مريم:٢٥]،

فجعل هزّ الجذع سببا في تساقط الرطب. إنّ الانتظار المحض للنصر عمل غير شرعي، بل العمل ما أمكن، حتى يأذن الله بنصره وفرجه.

ومن الخطورة بمكان أن يتحول المظلوم إلى ظالم، جرّاء الثأر والتوسع في أخذ الحق، ولذلك جاء الأمر الرباني: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ [الإسراء: ٣٣]، وكم يشهد الواقع من إسرافٍ في القتل، والتذرع بالمظلومية في ظلم الخلق.

وحين تشاهد ما يحصل في الشام هذه الأيام، وتسمع حجج البغاة والقتلة ممن ينتسب للجهاد في سبيل الله، تجد كثيرًا من الظلم يقع منهم باسم الرد، وأخذ الحق، والانتصار من الظلم، وما لم تكن هناك جهة محايدة لا يُفتَأَتُ عليها، وهي التي تحدد المظلمة والظالم، فسيظل كل ظالم مهما بلغ ظلمه يمارس الظلم والبغي والقتل، باسم المظلومية وأخذ الحق، والله المستعان!

يوم الدِّين:

لا يكتمل العدل إلا في ذلك اليوم؛ ففيه يأخذ المظلوم حقه كاملًا وافيًا، ولا تستقيم الحياة الدنيا دون إيمانٍ بيوم الدين؛ ففيه عزاءٌ لكل مظلوم، وردعٌ وزجر عن الظلم.

إن الإيمان بيوم الدين ليس معلومة باردة في الذهن، بل هو معنى يبعث الحياة في الروح، ويَمدُّها بأسباب الصبر والحياة، ولابد أن يُشرَق هذا المعنى على القلب كل يوم وليلة سبع عشرة مرة، ففي كل ركعة يستذكر المسلم ويستحضر بقراءته لسورة الفاتحة «يوم الدين»، فيتعزى المظلوم، ويرتدع الظالم. وفي الدنيا ينتقم الله من الظالم وينتصر للمظلوم، ولكن لا يتمحّض ذلك ويكتمل إلا في يوم الدين. ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾

[إبراهيم٤٢-٤٣].

إن مِن المظالم ما تأخذه اليوم.. ومظالم أخرى لها موعدٌ مهيب، موعدها يوم الفصل: ﴿ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴾

[المرسلات:١٢-١٤].

لقد جُعلت المحاكم للفصل بين الناس في الدنيا بالعدل والحق، وكم يقع في المحاكم من المظالم، فرب ظالم ألحن بحجته من مظلوم، ورب قاض يقضي بين الناس بالجهل أو الهوى، فيضيع الحق، وترتبك العدالة، ويُغبَن الناس في حقوقهم.

كثيرا ما كنت أسمع حديث رسول الله ﷺ: «قاضيانِ في النارِ، وقاضٍ في الجنةِ، قاضٍ عرفَ الحقَّ فقَضَى بِهِ فهو في الجنةِ، وقاضٍ عرفَ الحقَّ فجارَ مُتَعَمِّدًا أَوْ قَضَى بِغَيْرِ عِلْمٍ فهما في النارِ»، وكنت أحسب أن العلم هو العلم بأحكام الشريعة، وهو من العلم الواجب -ولاريب-، ولكنْ هناك علم آخر في غاية الوجوب الشرعي، ويحصل فيه من التقصير ما يحصل، وهو العلم بالقضية محلّ الدعوى، فكثيرا ما يتم التقصير في تصورها واستيعابها، ويدخل مثل هذا في القضاء بلا علم؛ فيخسر صاحب الحق قضيته بحكم المحكمة، التي جُعلت لإحقاق الحق وإبطال الباطل. هنا يتذكر المؤمن أن الدنيا لن يستتم العدل فيها، ويتذكر يوم الدين، حيث يجتمع الخصوم مرة أخرى للخصومة عند رب العزة والجلال:

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾

[الزمر:٣٠- ٣١]، ومن كسب الخصومة اليوم بالظلم، فموعده يوم الدين حيث لا يكسب إلا صاحب الحق والعدل.

ويلٌ للمطففين:

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾ [المطففين: ١-٦]

العدل مطلوبٌ في كل شيء، وقد توعد الله من ترك العدل في مكياله وميزانه، فنقص أو استوفى على غير العدل والإنصاف.

لولا أن الأمر بالعدل راسخ في كل الشرائع السماوية، لم يصل الوعيد على من خالفه إلى هذا الحد، فإن التطفيف في بادئ الرأي عمل خفيف ليس من أولويات الإصلاح، أما في شريعة الله فإن مفارقة العدل ولو كانت تطفيفا في الميزان والمكيال جريمة تستحق هذا الوعيد، وهي من أولويات الإصلاح، فتبدأ السورة بالوعيد والتهديد حمايةً لحقوق الخلق، وإقامةً لميزان العدل، ومِن قبلُ أرسل الله شعيبا إلى قومه؛ هاديا ومبشرا ونذيرا، فجاءت دعوته بالتوحيد، وتصحيح ما أفسدوه من أمر العدالة في بيعهم وشرائهم: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ

وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٥].

والتطفيف يكون في كل شيء بالتعامل غير العادل، فيحاسب نفسه بميزان، ويحاسب غيره بميزان آخر، ومن أمثلة ذلك: حين يخطئ أحد من طائفتنا، نقول: لا يمثل إلا نفسه، وحين يخطئ رجل من مخالفينا، ننسب هذا الخطأ لهم جميعا. حين نخطئ نعتذر بالنية الطيبة، وحين يخطئ غيرنا فالنية الطيبة لا تكفي. وفي الإعلام: يرون اقتحام المساجد وتحريقها فيعتبرونه خلافا سياسيا فحسب، ولو حُذفت الكنيسة بحصاة لاعتبروا ذلك إرهابا دينيا. وهناك تطفيف في الورع والحسبة؛ فإنه يرى الظلم والبغي على أحد الفضلاء ولا يهتز ضميره، فإذا سمع الدفاع والثناء أدركه خوفُ الغلوّ فأنكر ! وهناك تطفيف في العلم، فتجده يستدل لقوله بقول الصحابي مثلا، فإذا استدل به مخالفه في مسألة أخرى قال: قول الصحابي ليس بحجة!

وأغلب التناقضات العائدة إلى محاباة النفس أمام الآخرين تدخل في عموم التطفيف، وتدخل في الظلم المنهي عنه، وعاقبة الظلم وخيمة، والويل والثبور للمطففين.

يبقى هنا أن نقول: إن الظلم والتطفيف لا يزول بالقانون وحده، بل لابد من الوعظ والتذكير بيوم الدين، ويوم البعث، يوم يقوم الناس لرب العالمين. من المهم أن تأخذ هذه المعاني حظها في الخطب والمحاضرات؛

فإن الفطرة تنتكس فتحسب التطفيف حِذقًا وظَفَرًا، وهو الخسار والبوار، وفي سورة المطففين جاء التذكير بموعد لقائه والقيام له سبحانه.

بعض المساواة ظلم:

لن تدخل مدينةَ العدل والفهم حتى تَطرُقَ هذا الباب: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾ [آل عمران: ١١٣]. الكره لا ينبغي أن يجعل أعداءنا على السواء، والحب لا ينبعي أن يجعل أصدقاءنا على السواء، ومِن عدل الله التام أن فارَقَ بين أهل السيئات وأهل الحسنات: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية:٢١]، ثم مِن عدله أن فارَقَ بين أهل السيئات في دركاتهم بحسب اختلافهم في الإثم والسوء في الدنيا، كما فارَق بين أهل الحسنات في درجاتهم بتفاوت حسناتهم وأعمالهم: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[الأحقاف:١٩].

المساواة في الحكم مع اختلافِ العملِ ظلم، والعدلُ أن يُعطَى كل ذي حق حقه. هناك حاجة فطرية للعدل يُعبَّر عنها بالمساواة في بعض

الأحيان، وكلمة العدل أدق وأصدق من كلمة المساواة.

وفي ثورة الشعوب الأوربية كانت الحرية والمساواة والإخاء شعارًا تهفو إليه النفوس، والمساواة هنا بمعنى: العدل، فهي وقوف الجميع أمام القانون على السواء، ومحاربة التمييز العنصري، الذي يفضل شخصا للونه أو عرقه، وهذا هو العدل، ومن غير المناسب في مثل هذه الحالة محاربة هذا المصطلح الدال على معنى العدل؛ فإنها كلمة شاعت وذاعت وأصبحت مَعْلَمًا في التاريخ، ومخالفة هذا الاسم تعطي فكرة خاطئة، وكأننا ضد العدل وضد الفطرة، وإن كان في مضامين المساواة ما يستحق الاعتراض، كالمساواة التامة بين الرجل والمرأة في الميراث- مثلا-، وهو ضد الشرع وضد العدل؛ فيُعتَرَض على هذه الفكرة بخصوصها دون أن نحارب معنى فطريا صحيحا، وإن تركوا اسمه الفاضل واستعملوا اسمه المفضول.

إنما المساواة الخاطئة ما كانت بديلا عن العدل، مثل الحكم المجمل الذي يساوي بين قوم مختلفين ومتفاوتين، أما المساواة البديلة عن التمييز الجائر، والتسوية بين الناس أمام القانون فهذا معنى صحيح لا يخالف شرعا ولا عقلا.

وبعض الحياد ظلم:

من معاني الحياد الجميلة: ألا تميل مع أحد الطرفين لهوىً أو مصلحة، بل تقف منهما على مسافة واحدة، وهذا من العدل، لكنه يصبح ظلما حين يستمر هذا الموقف المحايد حتى بعدما يتبين الظالم من المظلوم. هنا يجب أن يكون لك موقف إيجابي لمصلحة المظلوم وصاحب الحق، تفرض هذا الموقفَ قِيَمُ العدالة والإيجابية، ومن استمر في موقفه المحايد بين الطرفين فقد تجاوز العدل إلى الظلم، وشارك الظالمَ في ظلمه؛ بتفريطه في نصرة الحق وأهله.

أخطر من الظالم طرفٌ ثالث يلوم الظالم والمظلوم، فهذا ظالم يلبس ثوب الحياد والعدالة، وهذا من ظلم القضاة، وهو أشد خطرا من ظلم الخصوم، فالطرف الثالث هو في مقام القاضي الذي يحكم بين الطرفين، ويساعد المظلوم، ويكف بأس الظالم، فإذا لَامَ الطرفين، أو أعرض عنهما، فقد اقترف ظلما خاصا له ألمه الخاص في نفس المظلوم.

لا يزال الناس يتذكرون شؤم التصريحات الروسية وهي تتظاهر بداية الأزمة السورية بالحياد بين نظام قاتل ظالم غاشم معتدٍ، وشعب أعزل مظلوم

مضطهد، لقد كانت تصريحاتهم مضرب المثل للظلم الذي يلبس ثياب الحياد.

وفي القرآن منهج واضح للتعامل مع أطراف الأزمة، يُفصِّل العدل تفصيلًا: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات:٩]، وفي هذه الآية يظهر أن استمرار الحياد وعدم اتخاذ موقف بين الطرفين نوعٌ من الظلم والضعف، بل الواجب أن يتخذ الطرف الثالث موقفا واضحًا، ينصر به صاحب الحق، ويقاوِم به صاحب الظلم.

ويظهر في هذا النص الشريف أن الصلح عمل جليل، يتطلب العدل مع القوة التي تفرض هذا العدل، كما قال عمر ﷺ في رسالته لأبي موسى الأشعري: «فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له»، وذلك ما يغيب عن جماعةٍ من المصلحين، حين يكون المصلح لا يملك سوى الكلمة الطيبة، وهذا يجعله يخضع لشروط القوي بُغيةَ إتمام الصلح، فيتم الصلح -إن تم- على غير العدل، وربنا يقول: ﴿ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات:٩].

إن الحياد المطلوب هو في البعد عن الهوى، وعدم الانحياز لأحد الطرفين قبل أن تتبين الحقيقة، كما يعمل القاضي مع خصومةٍ ما حال المرافعة

والمدافعة، أما بعد ظهور الحق فإن الحياد -حينئذ- نوعٌ سيء من الظلم، يشبه ظلم القاضي الذي سمع حجج الطرفين، ثم ساوى بين الظالم والمظلوم.

وبعض المحايدين الظالمين بحيادهم يحتجون لأنفسهم بالأخطاء التي ارتكبها كلا الطرفين، وكأنه لا يدري أن نصرة المظلوم لا يشترط فيها عصمة المظلوم من الخطأ، وسلامته ونقائه التام، فمثل هذا الشرط يمنع نصرة المظلوم؛ فإنك لن تجد معصومًا تنتصر له، وفي القرآن وصف الله انتصار الكفار من الروم على الكفار من أهل فارس بأنه نصر الله، وأنه يوم فرح للمؤمنين.

فالعدل أن تقف بجانب المظلوم، وجانب الأقرب للحق والصواب، وربما انتصرت لصاحب الخطأ؛ لأن مقابله صاحب خطايا، ولا ينقضي عجبك من قومٍ صالحين يقفون ضد أقرب الفريقين إلى الحق، ويخذلونهم بحجة بعض الأخطاء، ولا يدرون أنهم بهذا الصنيع ينصرون الأكثر ظلما وخطأً وهم لا يشعرون، وبعضهم يمارس دور النقد الذاتي - بزعمه- في وقت توجب الشريعة فيه مقام العدل والنصرة، فيضيِّع فريضة العدل بتشاغله بالنقد والتصحيح في غير حينه ووقته.

العدل والاعتدال:

العدل أخو الاعتدال، فيرى الحسنات ويرى السيئات، ويحكم للأغلب منهما. ومن الناس من يظلم الفضلاء، وينتقص من مقامهم؛ لأخطاءٍ وَجدَها عندهم، وهو مرتاح الضمير في انتقاصه لهم؛ اعتمادًا على هذه الأخطاء التي تحقق من وجودها، ويقع هذا كثيرًا من المتجرئين على صحابة رسول الله ﷺ، فتجد أمثلهم طريقةً من يُتعب نفسه في البحث والتنقيب في بطون الكتب؛ حتى يتحقق من بعض الأخطاء، فإذا تحقق من وجودها سمح لنفسه أن ينتقصهم ويزدريهم، وما هذا سبيل العدل؛ فإن العدل لا ينظر بعينٍ واحدة، ولا يكتفي ببعض الأخطاء في إسقاط الفضل والعدالة، بل يرى الحسنة والسيئة، ويدرك ما يعتري العمل من ملابسات وعوارض، ويحكم للأغلب منهما، وقد قال الله عن خيرة خلقه، الداخلين في رضوانه وجنته:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ [الأحقاف:١٦]، فهؤلاء لهم سيئات بصريح الآية، ولم تَحُل هذه السيئات بينهم وبين الجنة والرضوان؛ حيث غلب فضلهم، ورجحت حسناتهم، وأولى من يدخل في هذه الآية هم

أصحاب رسول الله الذين آمنوا به وعزَّروه ونصروه وأولئك هم المفلحون.

إن الاصطفاء والاختيار الربّانيّ لا يلزم منه السلامة والكمال، كما هو الحال في بني إسرائيل، وقد قال الله عنهم: ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الدخان:٣٢] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الجاثية: ١٦].

والعدل يقتضي التمييز بين الفاضل والمفضول: ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ﴾ [الحديد: ١٠]، وهذا السبق والفضل لبعضهم لا يسمح لنا أن نقدح في بقيتهم، كما قال الله: ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [الحديد: ١٠]، فالعدل الذي يميز الفاضل هو الذي يمنع من الإساءة للمفضول.

ومما يدل على أهمية العدل والاعتدال، ما هو مقرر من تفاضل رسل الله، فقد فضَّل بعضهم على بعض، كما قال الله: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وهذا التفاضل بينهم لا يُجيز عدم الإيمان ببعضهم: ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. ومع العدل الموجب للتفضيل، يأتي الاعتدال الموجب للأدب مع الفاضل والمفضول.

عن أبي هريرة ﷺ قال: استبّ رجل من المسلمين ورجل من اليهود،

فقال المسلم: والذي اصطفى محمدا ﷺ على العالمين، في قَسَمٍ يُقسِم به، فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم عند ذلك يده فلطم اليهودي، فذهب اليهودي إلى النبي ﷺ فأخبره الذي كان من أمره وأمر المسلم، فقال: «لا تُخيِّروني على موسى، فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي أو كان ممن استثنى الله» (رواه الشيخان). وقد ذكر العلماء أن التفضيل على وجه الحميّة والعصبية منهي عنه، فإنه مشعر بتنقُّص المفضول، فالعدل واجب، ولا يستغني العدل عن الاعتدال والأدب.

العدل فوق مشاعر الحب والكراهية:

يتساوى الناس في حب العدل والمطالبة به حين يحتاجون إليه، ثم يفترقون حين يكون العدل مخالفا لمصالحهم وأهوائهم، فيثبت أهل العدل المخلصون له، ويسّاقط المتشبثون بالعدل حين يوافق مصالحهم وأهواءهم. التحدي الأكبر حين يتواجه العدلُ مع الهوى وجهًا لوجه، ولذلك جاء التحذير واضحًا في القرآن من تأثير الهوى على إقامة العدل:

﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ﴾ [النساء: ١٣٥].

والهوى ألوان ومسارب شتّى، ومن ذلك: الكراهية والعداوة، فإن ذلك مظنة الحيف والجور، وأهلُ الإيمان هم أهل العدل حتى مع أعدائهم، ولا يستبيحون الظلم مع من فارقهم في الدين، وقاتلهم عليه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ [المائدة:٨]. والشنآن مظنة الظلم والحيف، فإذا كان الشنآن في ذات الله، حيث فارقوا دينه، وقاتلوا أولياءه، فإن الظلم حيئذ قد يتلبس لباس الديانة والبراءة من المشركين، وما كان الظلم دينًا لله، وما كان الجور قُربةً لله، ولذلك جاء النص الواضح أن الأقرب لله هو العدل حتى مع الكافرين المناوئين لدين الله: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، وبهذا لن ينفع التحايل على العدل، بإقامته ظاهرا والتحايل عليه باطنا، كما هو الحال في المحاكم الصورية، التي يقيمها المتغلب، وينتقم من خصومه ويبطش بهم باسم العدالة، ورسوم المحاكمة، فالعدل في الإسلام دينٌ لا يقبل التلاعب، والذي أوجبه ويحاسب عليه خبير بما تعملون.

ومن الهوى: الحبّ والقرابة، وقد يعدل المرء مع أعدائه، ثم يحابي أحبابه وقراباته، والعدل الذي يحبه الله أقوى من عاطفة الحب، كما هو أقوى من عاطفة الكره: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وإمام العدل هو محمد ﷺ، وقد أقسم -وهو الصادق المصدوق- أنه لن يتخلف عن العدل مهما بلغ حبُّه: «والذي نفسي بيدِه! لو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمدٍ سرقت لقطعتُ يدَها» (متفق عليه).

ومن مسارب الهوى الخفيّة التي تؤثر على العدالة -وجاء القرآن بالنص عليها-، التعاطفُ مع الخصم الفقير أمام الخصم الغني؛ فإن هذا التعاطف يلتبس بالمروءة والأخلاق، وربما هرب الإنسان من محاباة الغني حتى وصل للتحامل عليه باسم النزاهة والعدالة، كل ذلك من الأهواء الخفيّة التي تَعرِض للعدل وتؤثر عليه، والله -جلّ جلاله- يقول: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء:١٣٥].

والتجربة الإنسانية تُثبت أن الهوى أغلب، وأن العدل ما لم يُحرَس بقوانين صارمة فإنه سيذهب ضحية الأهواء الخاصة.

لقد تطورت الخبرة البشرية في اكتشاف ضمانات العدل، ومحاربة الأهواء الخاصة في الحكم، واشترطوا في ذلك استقلال القضاء؛ حتى لا يكون أداة طيّعة في الظلم، واشترطوا إجراءات كثيرة تجعل النظام مستعصيا قدر الإمكان عن الاستغلال، ومؤديا لدور العدالة بين الناس. نعم، إن كل ذلك لن يغني عن التقوى والنزاهة الشخصية، لكن النزاهة الشخصية هي أيضا لا تغني عن تطوير القضاء وإجراءاته بما يضمن سدّ الذرائع عن الظلم.

إن نظام القضاء في كل أمة شخصيةٌ اعتبارية تستطيع أن تصفها بالعدل أو الظلم، ومؤلم جدا أن تجد نظام القضاء عند بعض الكفار أقرب وأحكم

في تحقيق العدل من أنظمة القضاء في بلاد المسلمين. العدل شريعة الله، وكل ما يساعد على تحقيقه في الغرب أو الشرق فنحن أولى به وأجدر، والنصوص جاءت بالأمر به، والنهي عن اتباع الهوى، وعلى الأمة أن تطور أدواتها في تحقيق العدل ومحاربة الهوى، ومثل هذه الأدوات ليست من قبيل العبادات التي لا يجوز الزيادة فيها والنقصان، بل هي من الأمور المباحة والمصالح المرسلة، وقد نقل ابن جرير في تفسيره لآية النساء قولًا مُعبِّرًا للزهري في تعامل السلف مع إجراءات العدالة، والحرص على النزاهة: «عن ابن شهاب في شهادة الوالد لولده وذي القرابة قال: كان ذلك فيما مضى من السُّنة في سلف المسلمين، وكانوا يتأولون في ذلك قول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ الآية، فلم يكن يُتَّهَمُ سلفُ المسلمين الصالحُ في شهادة الوالد لولده، ولا الولد لوالده، ولا الأخ لأخيه، ولا الرجل لامرأته، ثم دَخِلَ الناسُ بعد ذلك، فظهرت منهم أمور حملت الولاةَ على اتهامهم، فتركت شهادةُ من يتهم، إذا كانت من أقربائهم. وصار ذلك من الولد والوالد، والأخ والزوج والمرأة، لم يتهم إلا هؤلاء في آخر الزمان».

وجملة القول أن العدل مع الهوى في معركة دائمة، ولن ينتصر

العدل في الأمة حتى يحاصَر الهوى في قلوب الحكام بالوعظ والتقوى والإيمان، ويحاصَر الهوى في النظام بتطوير الإجراءات والاستفادة المستمرة من الخبرة البشرية، حتى نصل بإذن الله إلى نظامٍ عادل، يقوم عليه رجل عادل.

العدل والإحسان:

الإحسان عدلٌ وزيادة، فإن من يُحسِنُ لأخيه بفضلٍ أو عفوٍ فقد استكمل شرطَ العدل وزاد عليه، ولا تستقيم الحياة دون العدل والإحسان.

إن المجتمع بحاجة لعدلٍ يحفظ الحقوق، وإحسانٍ يجمع القلوب. ومن وصل إلى درجة الإحسان فقد تباعد عن الظلم، ورسخت قدمه في العدل. لقد رأيتُ بعض الفضلاء مهمومًا بالحقوق والعدل، وهو خير- ولا ريب-، لكنه غفل عن أن بعض معالجاتنا توصل إلى حد المشاحّة والمقاطعة، حين نبالغ في التركيز على العدل ونغفل عن الإحسان، فالعدل محفوفٌ ومحفوظٌ بالإحسان، «ويبقى العود ما بقي اللّحاء».

والإحسان يشمل مكارم الأخلاق من التغافل والتسامح والعفو والفضل، ولا تستقيم الأسرة الواحدة -فضلًا عن المجتمع- إلا بالإحسان.

وفي كثيرٍ من الأحيان تجد القريبَيْن يحسب كل واحد منهما أنه مهضوم مظلوم، ولو أرادا أن يُجرِيا العدل دون إحسان لتقاطعا وتدابرا.

إن الذي أمر بالعدل هو الذي أمر بالإحسان، والعفو مندوبٌ إليه في الحقوق الواضحة البيِّنة فكيف بالحق المختلف عليه!؟

ومن كمال الشريعة وتمامها، وحسنها وبهائها، جاء العدل مقرونا بالإحسان، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠].

وقد رُويَ عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ .

وقال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الشورى: ٤٠].

لقد غاب الإحسان وحضرت المُشاحَّة والله المستعان: ﴿ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ [النساء: ١٢٨].



الوقفة الثامنة

الحرية

الحرية والاتباع:

- القسمة ثنائية: فاتباعٌ للهدى أو اتباعٌ للهوى:

الحرية المطلقة لن تعثر عليها في الواقع، هي وَهْمٌ موجود في بعض الأذهان الحالمة فحسب، وهذا له نقاش آخر.

القرآن وهو أصدق حديثًا، وأعمق فهمًا لهذا الإنسان، أخبر أن الجميع «مُتَّبِع»، فإما أن يتبع الهدى، أو يتبع الهوى، فالإنسان تابعٌ متَّبِعٌ لا محالة، قال الله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠].

وإذا كان الأمر اتباعًا لا محالة، فأن تتبع الهدى خيرٌ من أن تتبع الهوى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ [طه: ١٦]، وقال سبحانه: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴾

[محمد: ١٤]، وقال سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦].

واتباع الأهواء وأصحابها يحتاج إلى حذر دائم، وإلا ستزل القدم، وتنحرف المسيرة: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

ومن ترك الهدى واتبع الهوى فإنه قد استحق العقوبة، ولن ينفعه جاهٌ أو مال أو تاريخ سابق في الهداية: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٧].

وفي الجملة فإن البشرية كلها ستفترق إلى طريقين: طريق الجنة، وهم: أتباع الأنبياء، وطريق السعير، وهم: أتباع الشيطان: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾ [الإسراء: ٦٣].

الحرية:

أما الحرية بمعناها الصحيح، فإنها فطرةٌ إنسانية، وأشواقٌ روحية، وواجب شرعي، الحرية بمعناها المقابل للعبودية لغير الله، وليست الحرية المرادفة للفوضى والعبثية.

الحرية حياة.. وما الذي يُغرِي في الحياة إذا سلبوا منها الحرية؟!

إن الحرية متصلة بأصل التكليف لهذا الإنسان: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ١-٣].

وقال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وحين يفتح المسلمون بلادًا لا يُجبِرون أهلها على الإسلام -ولا

يجوز لهم ذلك-، ولا يهدمون كنائسهم وبِيَعهم.. هذه معلومة حاضرة ومتداولة، لكن ينقصها التأمل والانتفاع، ما الذي راعاه الإسلام حين ترك بيوت عباداتهم الشركية وهو يقدر على هدمها؟! ما الذي راعاه الإسلام حين منع من إجبارهم على الإسلام وهو يقدر بقوة الحديد والنار على منعهم من اعتناق دينهم؟! الحرية بمعناها الصحيح راسخة في أحكام الإسلام، وبلغت حدًّا يصل إلى أصل الدين.

إن الذي حكى لنا فظائع اليهود وكفرهم، هو الذي أمرنا بتركهم على دينهم الباطل وعدم إجبارهم على تركه، مع دعوتهم بالحسنى للدين الصحيح.

والحرية كما أنها شرفٌ فإنها مسئولية، فيوم القيامة يُسأل العبد عن اختياره، ولا يكفيه عذرًا أنه أطاع وتابع السادة والزعماء: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٧].

في زمانٍ مضى كنت أقرأ المحاجَّة والخصومة في النار بين الذين استُضعفوا والذين استكبروا، وهي في مواضع عديدة في القرآن منها: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ

﴿ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر:٤٧-٤٨]، وكنتُ أفهم دخول الذين استكبروا في جهنم، وأجد في نفسي بعض التساؤل والتعاطف تجاه الضعفاء، مع يقيني التام بأنه لا يظلم ربك أحدًا، وزال هذا التساؤل حين علمت أن الحرية تشريف وتكليف، وحين رأيت بعيني كيف يبيع بعض الأتباع عقولهم وتفكيرهم وإرادتهم، ويرضخون لأهل الباطل باسترخاء وتبعية وشهوة. في هذه الحالة أنت أمام خطيئة لا تقل عن خطيئة أولئك الطغاة، الذين تمكنوا من الطغيان بسبب هؤلاء الفاسقين: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٤].

إن أعظم ما يمنح الحرية هو التوحيد، الذي يخص الله بالتعظيم والإجلال والتكبير، التوحيد القائم في القلب، وليس التوحيد الجاري على الألسنة فحسب، التوحيد الذي يحتاج إلى تعاهدٍ دائم بالصلوات والدعوات، والأذكار وقراءة القرآن. هذا التوحيد يمنح القلب حريته وحياته، وينظر للمخلوق مهما عظمت قوته نظرة المخلوق للمخلوق، وفي قصة الموحد مع المسيح الدجال -وقد أجرى الله على يده من الخوارق ما لا يملكه عظماء البشر- ظل العبد المؤمن صامدا شامخا بتوحيده وحريته أمام فتنة الدجال وبطشه.

وللحرية أعداء يغتصبون الحرية، مثل الظلمة والمستبدين، وعداؤهم

للحرية واضحٌ بيّن، ولكن هناك لصوصٌ أخفياء يسرقون الحرية دون أن يشعر صاحبها، ومن هؤلاء اللصوص: الجمهور المحب؛ فإنه يجعل الرمز والمشهور في سجنٍ قضبانه من حرير، فيفقد الإنسان حريته مراعاةً لهذا الجمهور المبالغ في حبه، وكم تمرد بعض الشرفاء على قيود الطغاة واستبدادهم، ثم عجزوا أمام جمهورهم!

والمبالغة في الحب أو الكره سجنٌ آخر يسلب الحرية دون أن يشعر بها صاحبها؛ فالمبالغ في الحب «تابع».. ينتظر فعل محبوبه حتى يوافقه، والمبالغ في الكُرْه «تابع».. ينتظر الفعل حتى يخالفه، والمعتدل في حبه وكرهه حرٌّ مستقلّ يصنع الفعل ويبني الرأي بعيدا عن الاستلاب لردة الفعل.

إن التعصب «أعورٌ دجّال»؛ يطفئ عين المحب عن الأخطاء فلا يراها، ويطفئ عين الكاره عن الحسنات فلا يراها، ونعوذ بالله من كل أعورٍ دجَّال.

وهذا لا يختص بالأشخاص، بل هناك أفكار تأخذ صاحبها ومُعْتَنِقها كأسرى حرب، فيظل في شَرَكِها لا يبرحها، وينظر للعالم من خلالها، ولا يسمح لنفسه باختبارها أو تطويرها. هذه أفكار انتهكت حرية الإنسان ولكن لا على وجه القوة والغلبة، بل على وجه التستر والخفية.

بعض النجاحات هي الأخرى تسرق الحرية، وهذا من المسالك الخفية

لسرقة الحرية! فما لم يغادر الإنسان نجاحه السابق ويشرع في نجاح جديد، فسيغدو أسيرا في نجاحه السابق لا يحسن أن يغادره، حتى تتحول حياته إلى حديث مكرور عن ذلك النجاح السابق. وقد اتهم بعض الشعراء قصيدة عمرو بن كلثوم بذلك.

بعض النجاحات تحول بين الإنسان وتطوير أدواته ومهاراته، وفتح آفاق جديدة في حياته، فحاذر نجاحاتك أن تسلب منك حريتك على حين غِرّة، فتكون الصفقة الخاسرة، فإن الحرية أغلى من تلك النجاحات.

إن المعروف بمحاربة الحرية هم الفراعنة في كل زمان ومكان، ولسان حالهم: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩].

أما الأنبياء فإنهم أهل الحرية وسادتها، حتى في خاصة أهلهم وأسرتهم، وهذا مشهد عجيب يكشف جانب الحرية في تربية الأنبياء لأبنائهم: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات: ٩٩-١٠٦]، قد استأذنه وشاوره، وهذا قانون الحقوق والحرية، ولذلك كانت هنا

إرادتان مستقلتان: إرادة الأب، وإرادة ابنه، فكانت الاستجابة والفضل والشرف لهما جميعا، كما قال الله: «فَلَمَّآ أَسْلَمَا»: الأب وابنه.

وشبيهٌ بهذا الموقف في حفظ الحقوق وحرية القرار، كان في حضرة النبي الأكرم ﷺ، كما روى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ أُتِي بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام وعن يساره أشياخ، فقال للغلام: أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟ فقال الغلام: لا والله لا أوثر بنصيبي منك أحدًا، فتَلَّه رسول الله ﷺ في يده، ومعنى تَلَّه أي: وضعه، وهذا الغلام هو ابن عباس رضي الله عنهما.

فانظر كيف حفظ رسول الله حق الغلام ولو كان في القدح، وانظر لهذا المجتمع المعافى الذي يتيح لهذا الغلام الحرية ويربيه عليها حتى أصبح قادرًا أن يحتفظ بحقه مع كامل الأدب والرُّقي. هذه مجالس الأنبياء، مجالس الحقوق والحرية، والأدب والأخلاق.

عبادة الاتباع:

وكمالُ الحرية بكمال العبودية لله رب العالمين، ولم يصل بشر إلى مكان النبي محمد ﷺ في معراجه، حيث سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، إذ يغشى السدرة ما يغشى.

وفي هذا الكمال البشري الذي لا يتحصل لأحد غيره، وهو سيد الأحرار، تحرر من أهوائه، وتحرر من تعظيم الخلق، يصفه ربه بأجمل وصف: ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء:١].

ولئن كان بعض الكفار يرى الحرية في التمرد على الأديان، فما ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتوهم طريقا للحرية أفضل من طريق العبودية لله.العبودية لله هي التي تجعل جميع المخلوقين يتصاغرون أمام الله، والله أكبر! ليس للحرية باب أكبر ولا أرحب من هذه الكلمة، إذا نطق بها الجنان ووافقه اللسان: «الله أكبر»!

إن الطرق الأخرى لا توصلهم للحرية، بل للتمرد والمراهقة والنزق

والفوضى والعبثية، أما الحرية فإنها لا تُنال بكمالها وجمالها إلا على طريق الأنبياء، فهم سادة الحرية، وهم أدرى بِشِعَابها.

الحرية هي الانعتاق من العوائق لا من الحقائق، فالحرّ حين يلتزم بقانون العدل في حياته، فإنه لا يزيد إلا رفعة وكمالا، وذلك الذي يتمرد على العدل ينتقص من حريته وكماله بقدر ما يتمرد، فالعدل من أجمل الحقائق، والحرية بقدر ما تحارب العوائق، فإنها تحارب عن الحقائق وتفديها بالغالي والنفيس.

كان نوحٌ -عليه السلام- سيد الأحرار في زمانه، وتسامى عن خرافاتهم وأوثانهم، أما ابنه فحسب أن التمرد على دين أبيه حرية، وحسب أنه قادر على إبداع واختراع طريقٍ للنجاة بعيدًا عن طريق الأنبياء، وأبوه يدعوه ويناديه: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [هود: ٤٢]، وهو يصرّ على غيِّه، ومراهقته وتمرده ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾، لكن الحقائق لا تتغير ولا تتبدل، وهي أقوى وأبقى: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

في طريقي إلى الروضة الشريفة في المسجد النبوي، حيث كان المسجد في هدوئه وسكينته، هزَّني صديقي بهذه الكلمة: إذا تاهَ بك الطريق، فارجع إلى نقطة البداية !

أجل، هنا البداية، والهداية، وما ابتعد عنها أحد إلا ضلَّ وتاه، ولن ننجو من العوائق، ولن نصل إلى الحقائق إلا على هذا السبيل المبين. هنا سفينة نوحٍ، وباقي الأرضِ طوفانٌ.

وكمال الطاعة والاتباع لا تعني عدم السؤال والحوار، فإن الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤْمرون، حصل معهم سؤال وحوار مع رب العزة والجلال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة:٣٠].

وفي مجلس رسول الله ﷺ كان أصحابه آيةً في الطاعة والاتباع، ولم يمنعهم هذا من السؤال والحوار. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «إياكم والجلوس في الطرقات»، قالوا: يا رسول الله، ما لنا بُدٌّ من مجالسنا نتحدث فيها، قال رسول الله ﷺ: «فإذا أبيتم إلا المجلس، فأعطوا الطريق حقه»، قالوا: وما حقه؟ قال: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (متفق عليه).

عبادة الاجتماع:

الأمر بالاتباع مقرونٌ مع الأمر بالاجتماع: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وما أعظم القرآن !

كنتُ أنظر إلى واقع المتديِّنين وما عندهم من خلاف وافتراق، وأتوجع لهذا الواقع المؤلم، في الوقت الذي نرى فيه الأمم الأخرى تجتمع بعد افتراق، وتتجاوز خلافاتها الدينية، واللغوية، وصراعاتها التاريخية، حتى أضحوا أمة واحدة، يهابهم القريب والبعيد، ونحن هنا لا نجد انتخابات تحدث إلا صنعت انقسامًا واحترابًا جديدا، ولا يستجدُّ أمر إلا افترقنا وتنازعنا بسببه، حتى أصبح اجتماع الكلمة أشبه بالوهم الذي لا يمكن تحقيقه، لولا ما نراه هناك رأي العين!

وربما قيل: هذا بسبب البعد عن الدين، وهذا حق؛ فإن ديننا يأمر بالاجتماع وينهى عن التنازع، ولكن ما بال الكفار اجتمعت كلمتهم، والمسلمون وفي مقدمتهم المتدينون، كل حزب بما لديهم فرحون ؟!

ومما لاحظته أن المتدين أبعد عن الاجتماع من غير المتدين! فإن المتدين

ينازعك ويفارقك ويحاربك باسم الدين، فإذا دعوته للاجتماع، كأنما تراوده عن دينه، وهو يكرر في نفسه: ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾[القلم: ٩].

وحين تدقق النظر تجد أن أقرب المتديّنين للتنازع، هم المتسبون للسلفية، المهتمون باتباع الدليل، فلا يَصلون واديًا إلا وجدت معهم خيرًا كثيرا، وتنازعًا كبيرا !

هذه هي الحقيقة الصادمة كما أراها، ليست والله اتهاما ولا تعييرًا، والاعتراف بالمشكلة هي الخطوة الأولى في طريق التصحيح والتدارك.

من المؤلم جدا أن ترى أن دعاة اتباع الدليل سببا في التنازع والافتراق، فترى الجالية المسلمة الصغيرة في بعض البلدان، لهم أكثر من عيد، ولا يستطيعون أن يجتمعوا على يوم واحد.

لا يمكن أن تكون المشكلة في اتباع الدليل، بل هو الشفاء والعافية.. ولكن أين المشكلة إذن ؟!

إن من عايش المشكلة، وتوجع منها، يستشعر عظمة القرآن حين قرن بين عبادة الاتباع، وعبادة الاجتماع: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٦].

إذن مشكلتنا أننا بذلنا جهودًا كبيرة في بيان الطريقة (لعبادة الاتباع)،

وكيف تبحث عن الدليل، وكيف تتحقق من صحته، وكيف ترجح، وكيف تصحح.. بينما لم نبذل جهودا مماثلة في بيان الطريقة (لعبادة الاجتماع)، وكيف تصنع حين تلتقي بقوم آخرين يرجحون ما لا ترجحه، ويصححون ما لا تصححه، ومتى تترك ترجيحك الخاص رعاية لحق الاجتماع، ومتى تترك الاجتماع رعاية لحق الاتباع.. الخ.

فالتنازع إذن ليس بسبب الاتباع، بل لتقصيرنا في فقه الاجتماع. إن غاية ما صنعوه وقالوه هو الحث على الاجتماع، دون أن يكون ذلك وفق منهج وآليات واضحة، تشبه المواعظ باتباع الدليل لو خلت عن تخريج العلماء القادرين على معرفة الدليل والتحقق من ثبوته.

ليتنا نتعلم من صلاة الجماعة، ونحن نمارس فيها فقه الاتباع مقرونا بفقه الاجتماع، ثم ما نلبث أن نغادر هذا الفقه حين نُسلِّم من صلاتنا! ألا يأتي المسبوق في صلاته، فيلحق بالإمام، ويزيد في صلاته وينقص منها بسبب متابعته للجماعة= ما لو فعله منفردا لبطلت صلاته بإجماع العلماء؟!

مثال ذلك: لو أدرك المسبوقُ الجماعةَ في الركعة الثانية، فإن الإمام مع جماعته سيجلسون للتشهد الأول بعد ركعتهم الثانية، ويجلس معهم هذا المسبوق مع أنه لم يصلِّ إلا ركعة واحدة، ولا يسوغ له غير ذلك. لو فعلها (المصلي المنفرد) ذاكرا عالما، فجلس للتشهد بعد ركعته الأولى؛ بطلت

صلاته باتفاق الفقهاء، ومع هذا فإنه يفعل حال الجماعة ما لا يجوز له فعله حال الانفراد، رعايةً لحق الاجتماع.

حينما ضعف هذا الفقه (فقه الاتباع وفقه الاجتماع) في العصور المتأخرة، وصل بهم الحال إلى افتراقهم في الجماعات، وأصبح في المسجد الحرام مقام ومحراب لكل مذهب !

ثم صُححت والحمد لله هذه الفُرقة والتفرق في صلاة الجماعة، وبقيت في مناحي الحياة لم تُصحَّح.

إن هذا الموضوع يمثل عقدة مركزية في حياتنا الإسلامية، ويستحق مزيدا من البحوث العلمية، التي تتجاوز الوعظ إلى تتبع الأسئلة المشكلة، وبناء النظرية والمنهج في فقه الاجتماع.

وبسبب غياب الرؤية الواضحة التي تنطلق من الكتاب والسنة أصبحنا نرى من يتعبد لله بالتنازع وهو عند نفسه يصر على الدليل ويتمسك بالراجح.

هل أصبح التنازع دينا نتقرب به إلى ربنا ؟! نعم، هو كذلك في مفاهيمنا الخاطئة، ونسمي ذلك بغير اسمه.

وأحسب أنه لو قيض الله لهذه العقدة، من يجمع تفاصيلها، ويبني

نظريتها، ويوضح منهجها، ويؤصل لها من الكتاب والسنة، فإن الأمة ستختصر باجتماعها طريقا طويلا زاده التفرق والتنازع شعثا وطولا. وربنا قادر سبحانه أن يُهوِّن علينا سفرنا، وأن يَطوِيَ عنا بُعدَه.

خطيئة الابتداع:

الابتداع زيادةٌ في الدين، وهو بابٌ من أبواب الضلالة، والحق يقال: أن جهود العلماء السابقين أثمرت كثيرًا في تبصير المسلمين بخطورة البدعة، والحرص على العودة لما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه. هذه الجهود لا تكفي، ولازالت الأمة بحاجة إلى نشر هذه المعاني وترسيخها من جهة، ولازال معنى البدعة وضابطها وما يتعلق بها من أحكام بحاجة كذلك للبحث والمدارسة.

وأريد أن أتجاوز هنا هذا المعنى للابتداع، إلى مطلق الزيادة في الدين، والقول على الله بغير علم، لاسيما ما يروج في أوساط طلبة العلم من المحاذرين والمجافين للابتداع.

حين تقرأ سورة الأنعام، يلفت انتباهك التركيز على التشريع بغير دليل،

وأن ذلك من منازعة الله في أحكامه، ومن ذلك: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وذكر سبحانه ما يعتمدونه من أحكام وتفاصيل ما أنزل الله بها من سلطان، وفي سورة الشورى يقول الله: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى: ٢١]. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

حين يذكر الفقيه تفصيلًا لا دليل عليه من الكتاب والسنة، ما موقفنا من هذا التفصيل الزائد المنسوب للشريعة دون دليل؟

أما الفقيه فلعله اجتهد بما يعذره عند الله، ولعله إن أخطأ أصاب أجرًا واحدًا، ولكن ماذا عنا ونحن لا نرى حجةً شرعية تبيح لنا التدين بهذا التفصيل؟

إن نسبة الحكم إلى الشريعة أمرٌ جليل، وما لم يكن معك حجة وبرهان فتريَّثْ وتهيَّبْ، ألا ترى أن بعض القوم يُقدم على التحريم احتياطا، وما علم أن الاحتياط هو في الخوف والوجل من القول على الله بغير علم! يسعه أن يمتنع عن الفعل إن ارتاب في جوازه، ولا يسعه أن يحكم بأن الله حرم هذا إلا بسلطان مبين.

قال الله تعالى: ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩].

يُخطئ من يمرّ على هذه الآيات مرورًا عابرا، دون أن يقشعرّ بدنه من أن يكون قد وقع في مثل ذلك بجهلٍ أو تفريط. يُخطئ من يظن أن ذلك خاص بالمشركين، وكأن المسلم يحل له أن يقول على الله بغير علم. ومن يقرأ الفتاوى المعاصرة، ويستمع لكلام العامة والخاصة في المجالس، يتأكد لديه أن هذا الأمر الخطير في كتاب الله يحتاج إلى مراجعة في نفوسنا وتعليمنا ومواعظنا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: «ولهذا كان ابتداع العبادات الباطلة، من الشرك ونحوه، هو الغالب على النصارى ومن ضاهاهم من منحرفة المتعبدة، والمتصوفة. وابتداع التحريمات الباطلة هو الغالب على اليهود ومن ضاهاهم من منحرفة المتفقهة.» [الفتاوى: (٨٩/ ١)]. وفي موطن آخر يقول: «وكثير من المتفقهة وأجناد الملوك وأتباع القضاة والعامة

المتبعة لهؤلاء يشركون شرك الطاعة» [الفتاوى: (١/٩٩)].

إن انتسابنا للإسلام لا يعصمنا من أخطاء السابقين، بل يوجب علينا أن نكون قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسنا، وألا يمنعنا الحب والتقدير من واجب التصحيح والتجديد، وردُّ القول لا يعني انتقاص قائله، واحترام القائل لا يكفي في قبول قوله، حتى يأتي بسلطان مبين؛ فنسبة الحكم لشريعة الله، والقول على الله محلُّ الحيطة والحذر. قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

نسأل الله أن يحمي ألسنتنا من القول على الله بغير علم، وألا يجعلنا ممن يفترون على الله الكذب وهم لا يشعرون!



الوقفة التاسعة

مفاهيم

الإخلاص:

الإخلاص معنى شريف، يستعلي الإنسان فيه بمبادئه وأهدافه عن شهواته ودنياه، تنتصر فيه الروح وأشواقها، على الجسد وشهواته. والإخلاص لله تعالى هو الطريق الوحيد لقبول العمل، فلن يقبل الله طاعة في الآخرة إلا بالإخلاص، ومن أشرك في عمله تركه الله وشركه.

وأهمية الإخلاص لا تعني أن يتجرد الإنسان من ضروراته التي خلقه الله عليها، وما وُجد من تعارض بينهما، فإنه فهمٌ خاطئ للإخلاص، وليس الإخلاص المأمور به شرعًا، مثال ذلك: الذكر الحسن، فإن حبه فطرة مغروسة في النفس البشرية، لا يجوز أن تكون هي هدفه الذي يعمل من أجله، بل يعمل من أجل الله ورضوانه، ولا يمنع بعد ذلك أن يفرح بالذكر الحسن، وكان من دعاء إمام الموحدين، إبراهيم -عليه السلام-: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾[الشعراء: ٨٤]، يقول ابن جرير -رحمه الله- في تفسير هذا الدعاء: «واجعل لي في الناس ذكرًا جميلا وثناء حسنا، باقيا فيمن يجيء من القرون بعدي»، فمن فهم أن الإخلاص يعني عدم الفرح بالذكر الحسن، وعدم الحرص عليه، والدعاء به، فقد فهم الإخلاص على نحوٍ مختلف عن فهم إبراهيم -عليه السلام- الذي تعلمنا التوحيد تأسيا به، وبالأنبياء معه.

وفي سورة مريم يخبر تعالى أنه جعل له ولذريته لسان صدق في الآخرين: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٩-٥٠].

كذلك جاء في سورة الصافات، وربنا يذكر مِنَّته على عباده الأنبياء، ويُغري عباده أن يسلكوا طريقهم؛ لينالوا جزاءهم الجميل، وعاقبتهم الكريمة: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ [الصافات: ١٠٨- ١١١]. قال ابن جرير -رحمه الله-: «يقول تعالى ذكره: وأبقينا عليه فيمن بعده إلى يوم القيامة ثناءً حسنا».

وذكر مثل ذلك لغيره من الأنبياء، فالثناء الحسن، ولسان الصدق حبُّه مغروس في النفس، وطريقه طاعة الله، وأن يقدم مرضاة الله على مرضاة خلقه.

ومما هو مغروس في النفس البشرية، حب المال والمغانم، وقد جاءت النصوص الكثير في أهمية الإخلاص حال الجهاد، كما جاء في الحديث: «يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو في سبيل الله» (متفق عليه)، فهل يُفهم من هذا أن ينسلخ من بشريته، حتى يصبح المال والغنيمة أخذها وتركها سواء؟

وهل يستطيعه الإنسان ولو تكلف ذلك وطلبه؟

سادةُ المخلصين من هذه الأمة اختلفوا بعد بدر على الغنيمة، ومن انسلخ من بشريته في حب المال، لن يحرص عليه، فضلًا عن الاختلاف عليه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]، وقد ذكر الله في سورة الفتح تزكية الإخلاص في قلوبهم، مع ما كانوا يرجونه من الغنيمة: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ [الفتح: ١٨ ٢٠]. قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ يقول تعالى ذكره: فعلم ربك يا محمد ما في قلوب المؤمنين من أصحابك إذ يبايعونك تحت الشجرة، من صدق النية، والوفاء بما يبايعونك عليه، والصبر معك.. وقوله: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ يقول: وعوّضهم في العاجل مما رجوا الظفر به من غنائم أهل مكة بقتالهم أهلها فتحا قريبا»، فيبقى مع الإخلاص لله في الجهاد حبٌّ بشري للغنيمة والمال، لا يُشترَط في الإخلاص التطهر منه، إنما يكون تابعًا لا متبوعًا.

ومثل ذلك يقال في باقي الشهوات، مثل المنصب، والنساء، والأولاد، وغيرها، ولن تجد شهوة إلا وهي مخلوقة لبقاء الحياة أو

عمارتها، ولا يمكن أن تأتي الشريعة لاستئصالها بالكلية، إلا على وجه الرهبانية المبتدعة التي لم يكتبها الله على عباده، فمن استرسل مع الشهوات غوى، ومن استأصلها بالكلية غلا، ومن هذبها وزكاها رشد واهتدى.

الحزن:

يفهم بعض الناس أن الحزنَ فرعُ الإيمان بالله، واليومِ الآخر، وحسابه وعذابه، وأن قسيم الحزن هو الاستهتار وعدم المبالاة، وقد يُفاجَأ أحدهم حين يعلم أن الحزن لم يأمر به الله ولا رسوله ﷺ، بل نهى عنه في مواطن. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما الحزن فلم يأمر الله به ولا رسوله، بل قد نهى عنه في مواضع وإن تعلق بأمر الدين».

فلا ينبغي إذن أن نستدعي الحزن، ولو كان ذلك بسبب المنكرات، والحرصِ والشفقة عليهم.

لا يغلبونك على السكينة والطمأنينة: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨]، ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْۘ إِنَّ

﴿ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[يونس: ٦٥]. حتى المصائب التي تحل بالمسلمين لا ينبغي أن تستدعي لأنفسنا الأحزان، بل صبرٌ ويقين، وإيمانٌ واطمئنان، مع العمل النافع بقدر الطاقة والإمكان: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

إن النهي عن الحزن لا يعني القدرة على الامتناع عنه بالكلية، فإنه يهجم على النفس إذا توافرت أسبابه، وللطبيعةِ البشرية ضروراتُها، وقد قال الله لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٥].. ومع هذا: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧].

هذه طبيعة بشرية يُدافعُها المؤمن بالتسبيح والسجود والعبادة والصبر والإيمان، كما يُدافع المرض بالصبر والطب، أما استقبال الحزن والحفاظ عليه كما لو كان طاعة وقربة، فعملٌ غير صالح، وربما وصل الحال بنا إلى استدعاء الحزن وتهييجه في كل فرصة سانحة.

ورأيت بعضهم يتحرج من البهجة والرضا، وكأنّ ممارسة الحياة من شرطها أن تخلو من المنكرات والمصائب. العبرة في مصائب المسلمين بما تقدمه لهم من نفع بمالك ودعائك وعملك، أما إضعاف القلب والهمة بالأحزان، فلا ينبغي طلب ذلك وتكلّفه، وينبغي أن يكون قلبُ المؤمن هو أكثر القلوب رضا وسكينة وطمأنينة.

البراءة من الكافرين:

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ [الروم:٤-٥].

لقد سمى الله هذا النصر: نصر الله؛ إكرامًا وتشريفًا، وأخبر بأن هذا النصر سيفرح به عباده المؤمنون.

إن هذا النصر لقومٍ كافرين!: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم :٨٨ - ٩٢].

ونصرُهم في تلك المعركة هو نصر الله، ويومئذٍ يفرح المؤمنون، فإذا كان فهمك للبراءة من الكافرين يحجبك عن هذا الفرح، فراجع فهمك؛ فإنه على خلاف القرآن! حين يكون الروم (أهل الكتاب) مقابل فارس (أهل الوثنية)، فإن المؤمن لا يقف منهم على مسافة واحدة من البراءة، بل هو مع انتصار الروم ولو كانوا كفارًا، ولو كان سيقاتلهم في غزوة تبوك وما بعدها.

وفي كل معركة وحادثة، ينبغي أن يكون المؤمن مع الجانب الأقرب للحق والعدل، ولو كان كافرًا، وتعاطفُ المؤمن معه في تلك الحادثة لا تعني تزكيته بالجملة.

وجدتُ بعضهم يُشنّع على من يقف مع الجانب الأقرب للحق، إذا رآه بعد ذلك يخاصمه ويعاديه، ويَعدُّ ذلك ضربًا من التناقض، ودليلًا على قِصَر النظر وقلة الفقه، ولو تفكر في موقف المؤمنين من الروم حين قاتلوا فارس، وموقفهم من الروم بعد ذلك، لعلم أن البراءة من الكافرين لا تعني الثبات المطلق في صورتها ونتيجتها، فبراءةٌ من مشركين وقفوا مع الروم ضد فارس، وبراءةٌ من مشركين وقفوا ضد الروم في تبوك، وتغيُّرُ الحال دليل فقهٍ وبصيرة، وليس قِصرًا في نظر، أو رِقَّة في الدين.

حكماء صهيون:

قال الله تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: ١١].

يصل بنا الحال ونحن نسترسل في التحليل، وتوصيف العدو وقوته وإمكاناته، إلى أن نعطيه منزلةً فوق منزلة البشر، تضاهي خلق الله!

فكل صغيرة وكبيرة هي مرصودة في أجهزة القوم، وكل تصرف هو من تخطيطهم ومؤامراتهم، ثم نعد ذلك حِذقا في الرؤية، وعمقًا في التحليل.

الأمر يسير إذا كان قصارى أمره خطأ في تقدير، وإسراف في تحليل، لكن يكون خطرًا محدقًا حين يقدح ذلك في تعظيم الرب وتوحيده، وحين نتعامل مع الصهاينة أو الغرب أو الشرق، كما لو كانوا يضاهئون الله في علمه وقوته وقدرته وخلقه.

إن من يبالغ في قوة عدوه، يقدح في دينه، ويقضي على نفسه ومستقبله بالهزيمة والتبعية، وما أصابنا الضعف والهوان لقوة عدونا، بل لضعفنا وتنازعنا وبعدنا عن ديننا: ﴿ قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

إن ما كانت تصنعه الوثنية الأولى مع الجن، أصبح اليوم يصنعه بعضنا مع الصهاينة والغرب والشرق باسم العلم والعمق والتحليل: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾[الجن: ٦]. قال الطبري: «﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾: أي إثمًا، وازدادت الجنّ عليهم بذلك جراءة».

يجب أن نضع للتحليل حدًا لا يتجاوزه، ولِتقدير العدو وقوتِه قدْرًا لا يتعدَّاه، وأن نحاذر من نسبة شيء من خلق الله وحده إلى غير الله، وهذا الإيمان والتوحيد هو الذي ينير بصائرنا لرؤية الفرص الربانية، ويقوي عزائمنا على نهضة الأمة من جديد.

مفهوم التديُّن:

قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١-٣].

في دين الله ارتبط الإحسان في عبادة الله مع الإحسان لعباد الله، والتقصير في نفع الخلق مع التقصير في عبادة الخالق، ومن قَصَر تدينَه على زيادة التنسك والعبادة مع الإعراض عن الخلق وحوائجهم، فإنه سلك سبيلًا في التدين خاطئ.

والصلاةُ تعبد وتنسك، والزكاةُ صلة وإحسان، وقيام الليل؛ صلاةً وقراءةً وتهجدًا مقرون بنفع الخلق والإنفاق عليهم: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦- ١٧].

إن هذا طريق الجنة والجزاءِ الأوفى، أما النار فلها طريق آخر يجمع بين التقصير في العبادة، والإعراض عن نفع العباد: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: ٤٢- ٤٤].

ذات يوم.. عَرَضَت حاجةٌ لبعض القوم من المساكين والضعفاء، تحتاج

إلى مساعدة ومؤازرة، ومِن عجبٍ أن يترك بعض الصالحين مساعدتهم، وينتقدوا الاشتغال بذلك باعتباره اشتغالا بأمور الدنيا عن أمور الدين ! والعقيدةُ أولًا لو كانوا يعلمون -هكذا يقولون-!

هذا المفهوم في التدين يحتاج إلى تصحيح بما يوافق دين الله، في كتابه، وسنة رسوله ﷺ.

إن شخصية الموحد والداعية إلى التوحيد هي نفسها التي تطعم المسكين، وتكفل اليتيم، وتصل الرحم، وتُقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

وفي حديث ضيف إبراهيم المكرَمين، صورة مشرقة لإمام الموحدين، الذي تمتزج في شخصيته عبادة الله مع الإحسان لعباد الله.

الغلو:

قال الله تعالى: ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١].

أُسائل نفسي يوم الجمعة، والمسلم مأمور بكثرة الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.. لو أجريتَ معاييرك في سدِّ الذرائع عن الشرك، وحمايةِ جناب التوحيد، هل كنتَ ستفهم (كثرة) الصلاة والسلام على رسول

الله؟ أم كنت ستراها ذريعة قريبة للغلو في رسول الله بأبي هو وأمي ﷺ، وقد نهانا عن الغلو في محبته وإطرائه؟!

إن اختبار (المعايير)، والتأكد من شرعيتها وصحتها مهمٌ للغاية، فإن المعيار الخاطئ إمامٌ على غير هُدى؛ حيث يعتمده صاحبه في الحكم على الأشياء بالحل والحرمة، والصحة والخطأ، ولن تستطيع أن تختبر (المعيار) حتى تُجريه على الفروع المحكوم عليها في الكتاب والسنة، فإن وافق حكمهما صح المعيار، وإن خالفهما انكشف خطؤه.

أما معيار (منع الغلو وحماية جناب التوحيد)، فلو أجريتُه على فهمي السابق، لاستشكلت الأمر بكثرة الصلاة والسلام على رسول الله، وهذا يعني أن هذا الفهم يجب أن يصحح بما يوافق أحكام الكتاب والسنة، وألا نجيز بعض الأحكام للنص دون القياس، وتلك قصة أخرى.

المهم هنا أن هذا السؤال قد أَبَان لي أن الغلو مذموم، ولو كان في محاربة الغلو!

بئس هذا الغلو.. يضلُّ قومٌ (غلوًا) في الصالحين، ويضلُّ آخرون (غلوًا) في حماية جناب التوحيد، وربنا يقول: ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١].

ومما يثير التساؤل والمراجعة أن نأتي على أمور كانت باقية طيلة هذه

القرون، وتعاقَبَ عليها المصلحون دون أن يُزيلوها، رغم ما وقر في قلوبهم من حب التوحيد وحماية جنابه، ثم نأتي نحن بعد ذلك ونخالفهم فيها منعا للغلو وسدا للذريعة.. أوَ ما يسعنا ما وسعهم ؟!

الجمال والزينة:

الزينة من خلق الله: قال الله تعالى: ﴿ وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ [الحجر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ [الصافات: ٦].

والزينة من شرع الله، قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣١-٣٢].

ولأن المسرفين والفساق أسرفوا في طلب الزينة والحرص عليها؛ أصبح بعض المسلمين يقف موقفا متباعدًا عنها، وكأنها منكرٌ محرم.

علاقة المسلم بالزينة لا ينبغي أن تفسدها الممارسة الخاطئة من الآخرين. الزينة ليست هي الغاية والهدف الأسمى في حياة المسلم،

ولكن ليست هي من المعاصي التي يستنكف منها المسلم، وكأن الفوضى وعدم الجمال أقرب لروح الشريعة.

في زيارةٍ لمكتبٍ دعوي في الأحساء، أعجبتني كلمة قالها مديره وهو يشرح حرصهم على جوانب الجمال والنظام، يقول: لقد آمنت بلقيس عند سليمان بالإبهار، ولذلك ينبغي أن نعتني في دعوتنا بالفن والجمال والتنظيم.

لا يجوز أن نستنكف من الزينة وهي من خلق الله، كما نص القرآن على أن السماء الدنيا زيَّنها للناظرين، كذلك هي من شرع الله: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾. فهذه المعاني الفطرية من حب النظافة والجمال والزينة لا تأتي الشريعة بتحريمها، فإن الفطرة السوية من خلق الله، والشريعة تُهذِّب ذلك وتزكيه.

إن بعض العيون الكافرة أدمنت على الزينة، ومن يدعو إلى الله لا ينبغي أن يحجب هذه العيون عن الإسلام بالتفريط في جوانب الجمال والزينة المباحة، ومعاني الإسلام الخالدة تستحق منا أن نعرضها في الثوب الأجمل والأزين. الأذان ينبغي أن نختار له الصوت الأندى، والقرآن ينبغي أن نقرأه بأجمل أصواتنا.

في مشاعر الحج تأسف لمناظر الفوضى والقذارة، وتتحرج من هذا المسلم الجديد الذي جاء من بلاد النظافة والجمال والنظام، وقطع طريقه

الطويل يريد مكة عاصمة الإسلام، فيجد نفسه في انفصام حاد بين اختياره لأجمل الأديان، وما يراه من مظاهر أهله في شعيرة الحج.

لقد ارتبط الحج بهذه الفوضى حتى فقدنا الرغبة في التصحيح والتطوير، وأظن أننا سنجد من يعترض تديُّنًا على أي تطوير يخفف من هذه الحال، ويرى أن الحج لابد له من شعث وتعب، وفرقٌ كبير بين الصبر على شَعَث الطريق، وبين طلبه والحفاظ عليه.

الوضوء على المكاره أجرٌ وقربة، ولكن طلب المكاره والحفاظ عليها من أجل الوضوء فيها بدعة منكرة، ورسولنا ﷺ كان يتعوذ من وعثاء السفر، وكآبة المنظر.

الاحتجاج بالقدر:

قال الله تعالى: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ [الواقعة: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾ [الجمعة: ٨].

كما يتعامل الإنسان مع قَدَر الموت، ينبغي أن يتعامل مع باقي الأقدار، فهو يؤمن أن الموت قدر، ومع ذلك يحرص على مدافعة

أسبابه من الأمراض والأخطار، فتجد في خِلقة الإنسان ما يدفعه لطلب الحياة والفرار من الموت، والشريعة جاءت بتحريم الانتحار وتجريمه، وأصلُ الفرار من الموت مفطور عليه الخلق، ومأمور به في الشرع، والمذموم من ذلك ما وصل إلى حد المبالغة.

يحتج بالقدر بعض الضُلّال في حال الشهوة والشبهة، ويتخذون من الإيمان بالقدر عذرًا في مقارفة بعض الذنوب وترك بعض الواجبات، حتى يُخيَّل للإنسان أن الإيمان بالقدر سببٌ في هوانهم أمام الغزاة، واسترسالهم في الشهوات، وما كان للقدر -الذي هو من دين الله- أن يكون سببا في هوانٍ أو ضلال، بل هو مفهوم خاطئ في التعامل مع القدر، ولو أنهم تعاملوا مع الأقدار المذكورة كما يتعاملون مع قدر الموت، ما ضلوا ولا هانوا.

لقد آمن أصحاب رسول الله ﷺ بالقدر، فحملهم هذا الإيمان على الشجاعة والإنفاق ومكارم الأخلاق:

أيُّ يوميَّ من الموت أفرّ   يوم لا قُدِّر أو يوم قُدِر
يوم لا قُدِّر لا أرهبُه   ومن المقدور لا يُنجي الحذر

وهنا ضابط في كل المفاهيم، فإنك لن تجد مفهومًا يُضعف الهمة، ويُورث الهوان، إلا وهو مفهوم خاطئ ولو نسب إلى الشريعة، وإن لم

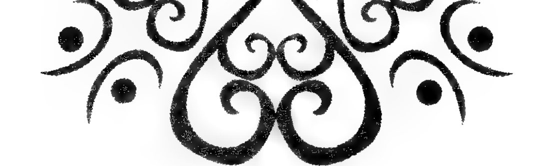
تهتد لسبب خطئه على وجه التفصيل، فإن هذا المآل الفاسد سبب كاف على سبيل الإجمال.

الشريعة ومعانيها لا تزيد الإنسان إلا زكاء وإحسانًا، وما خالف ذلك فإنه فهمٌ على غير سَنَن الشريعة، والإشكال يكون ممن يحترم هذا المفهوم لنسبته للشريعة رغم انحرافه، ويكون مِن آخرين يلحظون هذا الفساد فينكرون المفهوم بالكلية، والهداية في اكتشاف وجه الخطأ والانحراف، وتنقية المعاني الشرعية الصحيحة منه.

وللتفكّرِ والتفكير بقية..

تأتيكم في الأجزاء القادمة بإذن الله

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليما كثيرًا



فهرس الموضوعات

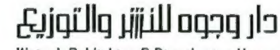


لعلهم يتفكرون

قراءةٌ تفكُّريّة في آيات الكتاب العزيز

هذا الكتاب هو الجزء الأول من مشروع «لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» وستلحقه أجزاءٌ أخرى -بإذن الله-. وهو قراءةٌ تفكُّرية في آيات القرآن الكريم، متعلقة بالتفكير والمنهج، والدعوة والإصلاح، وموضوعات أخرى. وكم في هذا القرآن من المعاني والآفاق والأسرار لا يصل إليها المؤمن بغير التفكُّر، ومهما تكاثرت وتتابعت كتب التفسير، فإنه لن يُحيط المفسر المحدود في علمه وعقله بالنص الرباني الخالد.





دار وجوه للنشر والتوزيع
Wojooh Publishing & Distribution House
www.wojoooh.com
المملكة العربية السعودية - الرياض
الهاتف:4562410 الفاكس:4561675
للتواصل والنشر:
info@wojoooh.com
www.facebook.com /wojoooh
@wojoooh1

SR 10



9786030147595